



الأحاديث الأربعة

خطرات دينية

توفيق الحكيم

الأحاديث الأربعة

خطرات دينية

تأليف

توفيق الحكيم



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦/١/٢٠١٧

يورك هاوس، شيبث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إن مؤسسة هنداوي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٢٦٩ ٠

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٣.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ توفيق الحكيم.

المحتويات

٧	الأحاديث الأربعة
١١	الحديث الأول
٢٧	الحديث الثاني
٣٧	الحديث الثالث
٤٧	الحديث الرابع
٥٩	أنا مسلم ... لِمَذا؟
٦٧	خاتمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

(سورة هود، من الآية ٨٨)

الأحاديث الأربعة

هذا الكتاب «الأحاديث الأربعة» يضم الأحاديث التي نُشرت بعنوان: «مع وإلى الله» والتي أثارت الضجة المعروفة بين الناس ... مع أنها لم تخرج عن كونها نوعًا من المناجاة مع الله تعالى ... أستدرك وأقول: «إنها مناجاة بلغتي الخاصة، وثقافتي الخاصة، تعبيرًا عن حُبي الخالص لربي.»^١ فلن أقبل الفكر الذي يصدر بلا تفكُّر عن غير عقلي الذي خلقه الله ليُفكِّر، ولا أردي بلا مناقشة ما خرج من قلب وعقل الآخرين دون تأمُّل فيه وتمحيص. أمَّا الضجة التي حدثت فهي طارئة ودخيلة على القضية التي سأفرد لها مكانًا نظرًا لأهميتها.

^١ حديثي مع الله وإلى الله، في مقالاتي الأربع، التزمت فيه أدب الحديث مع ربي:

- (١) كَرَّرت أكثر من مرة أنه لم يُخاطبني، وإنما أنا الذي أُجيب مستلهماً ما يُمكن أن يكون رد الله على تساؤلاتي مستلهماً من قرآنه الكريم، وسُنَّة نبيه صلوات الله عليه.
- (٢) تأويلي لبعض الآيات في حديثي استقيته من أمهات كتب التفسير، والأحاديث استقيتها من أمهات الكتب الإسلامية.
- (٣) الردود التي نُسبت تخيلاً إلى الخالق راعيت فيها أن تكون مقتضبةً مثل «أكمل»، «استمر وأنت المحاسب على ما تقول»، أو آية مثل رَدَّه عليَّ بقوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة الإسراء: الآية ٨٥) ... إلخ، سامح الله من أساء فهمي، ومن أساء الظن بقصدي، ومن افتري عليَّ ما لم أقله، ومن أراد تنفيري من الإسلام دين السماحة واليسر.
- (٤) يهمني أن أشير إلى دهشتي ممَّا وجدت ضمن كتابات السابقين من مُفكري الإسلام ومتصوفيه زوّقوا الأحاديث ونسبوها إلى الله شعراً ونثراً في أساليب جريئة ممَّا لا أتصوّر إقدامي على مثله؛ تأمّل ديوان ابن الفارض رحمه الله، وكتابات ابن عربي.

هذا وقد رأيت عند إعادة الطبع في هذا الكتاب استبعاد كل الكلمات والأسطر التي كُتبت تخيلاً منسوبة إلى الله؛ مراعاة للحساسية الدينية التي لا أريد إطلاقاً أن تُسبب إزعاجاً لأي مؤمن، كما حرصت على تخريج الأحاديث الشريفة والأفكار التي وردت في الأحاديث الأربعة والتي قال عنها بعض العلماء إنها أحاديث موضوعة، ضعيفة، أو غير موجودة؛ فعدت إلى المصادر التي استقيتها منها فإذا بها أحاديث حسنة الإسناد لا يكاد يخلو منها كتاب من أمهات الكتب الإسلامية!

والقضية التي يجب أن تُناقش بجدية، تتلخّص في أن بعض علماء الدين يُريدون أن يكون لهم وحدهم حق تشكيل عقلية الأمة على أساس العلم الديني الذي درسوه هم من الكتب المعتمدة لديهم طبقاً للنصوص التي قرءوها وأقروها وحدها ... وقرءوها على طريقتهم، أي منفصلة عمّا استجد في العالم من معارف وإضافات.

ونراهم في نفس الوقت لا يعترفون لمن ليس منهم بحق التوجيه والتشكيل لعقلية الأمة على أساس العلم والثقافة العصرية، بغير أن يكون هذا الأساس العصري خاضعاً لرقابتهم وموافقهم، وهم على ما هم عليه من انفصال عن حركة الفكر في أزماته المتجددة، دون تفريق بين الثابت في الدين، والمتغير بتغير الزمان والمكان ... في حين أن رجال الرأي والعلم يجدون أن تشكيل عقلية الأمة يجب أن تُسهم فيه كل العناصر الإنسانية القائمة على النشاط الذهني والشعوري للإنسان: من عقيدة دينية، وفكر علمي، وأدب، وفن، وثقافة متجددة بتغير العصور من قديمة وحديثة، ما دام الإسلام صالحاً لكل زمان ومكان.

راجع كتاب المواقف والمخاطبات «للنفرى» طبعة دار الكتب المصرية، وكذلك كتب النسبة والفتوحات المكية «لابن عربي» والطبقات الكبرى «للشعراني» وكشف الظنون ولطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام ومكاشفة القلوب «للغزالي».

من مخاطبات النفرى: «يا عبد قل ربي عرج بي إليه وقال لي ارتفع إلى العرش فارتفعت فلم أر فوقه إلا العلم ورأيت كل شيء لجة، وقال للجة: انحسري، فرأيت العرش وأفنى العرش فرأيت العلم فوق وتحت، ورفع العلم فارتفع فوق وتحت، وبقي عالم ومد العلم ونصب العرش، وأعاد للجة، وقال لي اكتب العلم، وردني إلى العرش فرأيت العلم فوقى واللجة تحتي، وقال لي ابرز إلى كل شيء فسله حتى تعلم العلم النافع ...»

ومن مواقفه: «أوقفني وقال لي مَنْ أنت وَمَنْ أنا، فرأيت الشمس والقمر والنجوم وجميع الأنوار، وقال لي ما بقي نور في مجرى يجري إلا وقد رأيت، جاءني كل شيء حتى لم يبق شيء، فقبل بين عيني وسلم عليّ ووقفني في الظل ...!»

الأحاديث الأربعة

والخلاف الأساسي هنا بين بعض علماء الدين ورجال الفكر المعاصر: هو أنّ علماء الدين هؤلاء يعتمدون فقط على العلم والثقافة التي كانت موجودة في عهد النبوة بأسانيد المعتمدة عن هذه الفترة.

أمّا رجال الفكر، فيعتمدون على ذلك أيضًا، ويضيفون إليه كل ما وصلت إليه العهود الحديثة من علم وثقافة.

إنّ تراث الأقدمين ليس إلّا إفران عقول وقلوب بشرية عاشت في ظل معطيات حضارية تختلف عن يومنا هذا بما حدث من إضافات الحياة المتجددة.

وعليه فلا يجب أن نقف عند حدود تلك المعطيات الأولى وحدها، ونجعلها قيدًا لأفكارنا أو حدًا لا نتخطاه... فنظل مئات السنين ندور في حلقة مفرغة حول عصر واحد فقط كأنّ الإسلام لا يصلح إلّا له ولأفكاره وظروفه وحدها: وهو عصر الإسلام الأول، نبني عليه كل تفكيرنا، وننسى أنّ الإسلام صالح لكل العصور والأزمان، لأنّه من اليسر بحيث يصلح للحياة والتقدّم في كل عصر وزمان ومكان.

والله تعالى أكبر، وعلمه أوسع، ورحمته أعمق، وغفرانه أرحب.

توفيق الحكيم

شعبان ١٤٠٣هـ / مايو ١٩٨٣م

الحديث الأول

هذا الحديث مع الله، لم أرَ مانعًا من نشره، بإذن الله طبعًا.
فأنت تعرف يا ربي أنه لم يبق لي وأنا في آخر أيامي غيرك.
وليس غيرك من أحب الحديث معه، وأن يكون آخر ما أكتب هو هذا الحديث.
ولا يسقط القلم من يدي إلا وهو يخط اسمك الأكرم، سبحانك، وأنت الذي أكرمت
القلم وأقسمت به ...
وبإذنك، أسألك أن يكون حديثي في كل شيء شاهدته وفكرت فيه في أثناء إقامتي في
هذه الدنيا، دون حرج ... وأن تقويني على نشره في حلقات أسبوعية ...
كل حلقة يوم ثلاثاء ...
ذكرى ابني الوحيد ...
الذي وُلِدَ في الشهر الثالث ...
وتُوفِيَ في الثلاثين من عمره ...
يوم ثلاثاء ...
والشكر والحمد لك يا مَنْ نفسي بيده.

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾^١.

(قرآن كريم)

^١ ﴿يَوْمَئِذٍ يُؤَذُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ (النساء: الآية ٤٢) جاء في تفسيرها، «وقال بعضهم: إنَّ المراد بكتمان الحديث هنا كتمان الحق في الدنيا ككتمان

نعم يا ربي ... لن أكتمك حديثاً ... ولم يبقَ لي في حياتي الآن سوى الحديث معك ...
فقد عشت الحياة التي قدّرتها لي أكثر من ثمانين عاماً ... جعلت أهماً خلالها في كل وادٍ،
حاملاً قلماً أملأ به الأوراق بين جدّ وهزلٍ ...

ولا أظن أنني فعلت بذلك خيراً كثيراً ... ولكنني أذكرك كثيراً ... وأتحدّث إليك طويلاً
... وأعلم أنك تسمعني ... لأنك سميع بصير .

ولكن الحديث معك ليس بيسير؛ لأنك عليم بكل شيء ... وما أقوله تعرفه ... وليس
من حقي أن أسألك إجابة أو ردّاً ... وليس لبشر أن تُكلّمه أنت إلاّ وحياً ... ومن أكون أنا
حتى تُحدّثني أنت بالوحي!

لن يقوم إذن بيننا حوار، إلاّ إذا سمحت لي أنت بفضلك وكرمك أن أقيم أنا الحوار
بيننا: تخيلاً وتألّيفاً ... وأنت السميع ... ولست أنت المُجيب ... بل أنا في هذا الحوار المُجيب
عنك افتراضاً. إن كان مجرد حديثي معك سيُغضب بعض المترمتين لاجترائي في زعمهم
على مقام الله سبحانه وتعالى ... خصوصاً وحديثي معك سيكون بغير كلفة، أي من القلب
الصافي وحده، لا أتكلف فيه صنعة الأسلوب ... فأنا سأخاطبك مخاطبة الحبيب لحبيبه،
الحب الذي ليس كمثله حبٌّ؛ لأنك أنت ليس كمثلك شيء. وعندما سأل بعض المؤمنين نبيك
ﷺ عما إذا كانوا سيرونك في الآخرة^٢ لم يُرد أن يُخيب أمله؛ فلم يقل لهم: كيف ترون
من ليس كمثله شيء؟! وكيف وأنتم شيء أن تدرکوا من ليس بشيء؟!

أهل الكتاب صفة النبي ﷺ والبشارات ... (المنار، ج ٥، ص ١١٢)، وهذا ما أردته بإيراد هذه الآية تصديراً
لأحاديثي إلى الله، لا أكتمه فيها، ولا أكتم الناس شهادتي للخالق ولرسوله وللإسلام بعد أن شرّقت وغرّبت،
وإذا بي في ختام حياتي أوقن أنّ الإسلام هو الأصل، وأنّ مصير البشرية صائر إليه، وأنّه صالح لكلّ زمان
ومكان، وهذا ما أوضحتها فيما تلا هذه الآية من حديثي الأول: «نعم يا ربي لن أكتمك حديثاً ... ولم يبقَ
لي في حياتي الآن ...»

^٢ حديث رؤية المؤمنين لله يوم القيامة:

انظر صحيح البخاري كتاب الرقاق، ج ٨، ص ١١٧ وما بعدها، وفيه: «قال أناس: يا رسول الله هل
نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تُضارون في الشمس ليس دونها سحب؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال:
«هل تُضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحب؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فإنكم ترونه يوم
القيامة كذلك ...» قال القسطلاني في تفسير قوله «ترونه كذلك»: «الكاف ليست لتشبيه المرئي؛ فليس لله
شبيهه، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١)، وإنما هي لتشبيه الرؤية بالرؤية في الوضوح

وكيف وأنتم بشر ترون بعيونكم البشرية ما لا تراه العيون؟! وهل سنبقى في الآخرة
بعيون وأجساد بشرية؟ أظن أنهم لم يسألوا ذلك.
والقرآن الكريم قد ذكر في سورة الأعراف من الآية ٢١٤٣ أن موسى قال:

واليقين وعدم المجادلة ونفي الشك عنها.» (وإن كان المعلوم أن المرء لا يستطيع رؤية الشمس وإنما هو يرى الشمس من بعد ملايين السنين الضوئية، إذ آلة الإبصار لا يمكنها إدراك إلا ما ينطبع على عدستها قدر طاقتها البشرية المحدودة)، والخلف يؤولون المتشابه بصرفه عن معناه الحقيقي الموهم للتشبيه إلى معنى يليق بجلال الله وعظمته. ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (سورة الأنعام: الآية ١٠٣).

تفسير المنار بعد مبحث طويل ١٥٢ إلى ١٩٠، ج ٩، قال: «وقد عُلمَ ممَّا تقدَّم أنه ليس في الرؤية البصرية نص أصولي ولا لغوي متواتر قطعي الرواية والدلالة يجعلها من العقائد المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة، وليست ممَّا كان يدعى إليه في تبليغ الدين مع التوحيد والرسالة بحيث يكون من يجهلها أو ينكرها كافراً، وإنما هي من غريب العلم إلا على الذي يستنبطه من القرآن كبار العارفين، وربما كان فتنة لمن دونهم وكذلك كان، حتَّى إنَّ كبار النُّظَّارَ وعلماء البيان قد اختلفوا في كل من الآيات الثلاث الواردة فيها: في سورة الأنعام والأعراف والقيامة» ثمَّ يختم الموضوع بقوله: «خلاصة الخلاصة أنَّ رؤية العباد لربهم في الآخرة حق، وأنها أعلى وأكمل النعيم الروحي الذي يرتقي إليه البشر في دار الكرامة والرضوان، وأنها أحق ما يصدق عليه قوله تعالى في كتابه المجيد: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (السجدة: ١٧). وقوله في الحديث القدسي الذي رواه عنه رسول الله ﷺ: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.» وأنَّ هذا وذاك ممَّا يدل على مذهب السلف الذي عبَّر بعضهم عنه بأوجز عبارة اتفق عليهم جميعهم «وهي أنها رؤية بلا كيف»، ويؤيِّد ذلك اضطراب جميع أصناف العلماء في النصوص الواردة في نفيها وإثباتها سواء منهم أهل اللغة وأساطين البيان، ونظار الفلسفة وعلم الكلام، ورواة الأحاديث والآثار ومرتاخو الصوفية وأولو الكشف والإلهام، فلم تتفق طائفة من هؤلاء على قول فصل قطعي تقنع به بقية الطوائف بدليلها» اهـ.

٣ ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَبْصَارَكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الأعراف: الآية ١٤٣).

(فصل) في الرؤية ومجال التأويل في آيات رؤية الله تعالى ص ١٢٨ وما بعدها، الجزء التاسع من تفسير المنار:

رؤية الله تعالى ربما قيل بادئ الرأي إنَّ آيات النفي فيها أصرح من آيات الإشارة كقوله تعالى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾، وقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، فهما أصرح دلالة على النفي من دلالة قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢ و ٢٣)، فإنَّ استعمال النظر بمعنى الانتظار كثير في

﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾.

أما أنا، فأسأل وأجيب: إنَّ العالم الآخر عالمٌ مستقلٌّ عن عالمنا الأرضي، لن يكون رداؤنا فيه رداءً بشرياً، ولا قوانينه هي القوانين الأرضية ... وربما قصد العالمَ أينشتين بقانون

القرآن وكلام العرب، كقوله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ (سورة يس: الآية ٤٩) ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ (سورة الأعراف: الآية ٥٣). كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ (البقرة: ٢١٠) ... فقد روى عبد بن حميد عن مجاهد تفسيره «ناظرة» بقوله: تنتظر الثواب، قال الحافظ بن حجر سنده إلى مجاهد صحيح.

وقد كان النبي ﷺ يعذر أصحابه في اختلاف فهمهم للنصوص ويقفهم على ما كان للاجتهاد فيه وجه وجيه، كما فهم بعضهم تحريم الخمر والميسر من آية البقرة التي رجحت إثمهما على منافعهما فتركوهما، ولم يتركهما من لم يفهم ذلك وهم الأكثرون إلا بعد نزول آية النفي العظمى باجتنابهما. فإذا فحصنا أسباب الخلاف من وجهة النصوص وحدها، وجدنا لكل من النفاة للرؤية والمثبتين لها ما يصح أن يكون له عذراً عند الآخر بمنع جريمة التفرق في الدين، وجعل أهله أحراباً وشيعاً متعادية غير مبالية بما ورد فيه من الوعيد الذي كاد يجعله كالكفر، ما دام كل منهم يعلم أنَّ الآخر يؤمن بأنَّ جميع ما جاء به الرسول ﷺ حق، وأنَّ الخلاف محصور في اختلاف الفهم. ويقول في موضع آخر: «إنَّ الأحاديث الصحيحة من التصريح في إثبات الرؤية ما لا يمكن المراء فيه، ولكن المراد من هذه الرؤية غير قطعي، وفيها ما قد يدل على عدم الرؤية، فيأتي فيها الخلاف بين السلف والخلف.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ (سورة الأعراف: الآية ١٤٣).

وأحسن ما ورد في التفسير المأثور لهذه الأشياء مطابقاً لمعنى اللغة ما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الرؤية عن ابن عباس ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ قال ما تجلَّى منه إلا قدر الخنصر ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال تراباً ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ قال مغشياً عليه. ا.هـ. من تفسير المنار. ء ألبرت أينشتين (١٨٧٩-١٩٥٥م):

عالم الفيزيكا النظرية، من أصل ألماني، وعاش في أمريكا، عُرفَ بنظرية النسبية المشهورة. أجرى بحثاً على ظاهرة الكهروضوئية، وضع أسس «النظرية النسبية الخاصة»، ونال جائزة نوبل في الفيزيكا عام ١٩٢١م، ورحل إلى أمريكا، وتجنَّس بالجنسية الأمريكية (١٩٤٠م). أول من افترض وجود الضوء على هيئة كمات من الطاقة «فوتونات» وضع تكافؤ الكتلة والطاقة «النسبية الخاصة» وهو أنَّ الكتلة تكافئ طاقة مقدارها حاصل ضرب الكتلة في مربع سرعة الضوء، والعلاقة بين التجاذب وعزم القصور.

النسبية شيئاً كهذا — وهو من العلماء القلائل المؤمنين بالله[°] وليس كبقية العلماء الملحدين — لست أنسى قوله بالنص: «إنِّي أدين بالتبجيل كله لتلك القدرة العجيبة التي

أخرج نظريته النسبية عام ١٩١٦م على أسس رياضية، وهي تُحدّد العلاقة بين الجاذبية وبين انحناء الفراغ ذي البعد الزمني الرابع.
(فصل) عقائد علماء الإفرنج في هذا العهد، ص ٤١٢، ج ١٠ (تفسير المنار):

«مُلخّص القول في الدين عند الإفرنج كما يتراءى لنا: أنّ العوام لا يزالون يخضعون لدين الكنائس ونظم رجالها في الجملة، ولعلمهم يبلغون النصف في مجموع شعوبها، وأنّ الملاحدة المُعطلين فيهم، على كثرتهم، هم الأقلون في النصف الآخر. وسائر النصف يؤمنون بأنّ للعالم خالقاً وأنّه واحد، عليم، حكيم يعرف بأثره في نظام العالم الكبير، وأمّا ذاته فهي غيب مُطلق لا تتصور كُنْهها العقول، ضرب له الفيلسوف الألماني أينشتين الشهير مثلاً غلاماً مميّزاً دخل داراً من دور الكتب منضوذة مرتبة من أدنى الحجرات إلى سقوفها؛ فهو يدرك أنّ في هذه الكتب علوماً كثيرة مكتوبة بلغات مُتعدّدة، وأنّ الذين وضعوها في مواضعها أولو فهم ونظام هندسي دقيق، وأمّا ما دُوّن فيها من العلوم والفنون فلا يصل عقل إلى أقلّ القليل منها».

° يقول الدكتور أبو الوفا التفتازاني حول إيمان أينشتين: «إنّما العلم يدفع إلى مزيد من الإيمان بوجود خالق لهذا الكون حتّى إنّ العالم المشهور أينشتين، الذي غير مجرى العلوم الطبيعية في عصرنا، سأله أحد الصحفيين عن قضية الإيمان، فقال: إنّ هذا الكون الفسح البدع الترتيب الذي يتضمّن هذه المجاميع الهائلة من النجوم لا يمكن أن يكون قد وُجِدَ عن طريق الصدفة، ولا يمكن أبداً أن يكون ما يقوله بعض الناس من إنكار الخالق صحيحاً»، وأضاف الدكتور التفتازاني: «إنّني لا أقرّر أنّ أينشتين مؤمن بمعنى أنّه مؤمن بعقائد الإسلام أو أنّه من أهل النجاة، بل إنّني أرى أنّ الإنسان لا يمكنه الوصول إلى معرفة حقائق الوحي بمحض العقل، وكل الذي أردته في معرض إلزام الخصم الذي يربط بين العلوم المادية ومناهجها وإنكار وجود الخالق أن أُبيّن أن ليس هناك ارتباط ضروري بينهما، ويستطيع الإنسان أن يجمع بين العلم والإيمان».

ويختم التفتازاني هذا الموضوع بقوله: «إنّ الحكم الذي أراه في هذه المسألة هو ما قرّره الإمام أبو الحسن الأشعري حين ذهب إلى أنّ الواجبات كلها سمعية، والعقل لا يُوجب شيئاً، ولا يقتضي تحسیناً ولا تقييماً، فمعرفة الله بالعقل تحصل وبالسَّمْع تجب»، فإذا كانت بعض العقول تقوى على معرفة وجود صانع لهذا الكون، فإنّ هذه المعرفة، لا تعلّق لها بالوحي، ونحن لا يجب علينا شيء إلاّ عن طريق الوحي أو السَّمْع.

(راجع ندوة العلم والإيمان - التصوّف الإسلامي.)

تكشف عن نفسها في أضالٍ جزئية من جزيئات الكون! كما لا أنسى قول العالم المعاصر «كاستلر»^٦ الذي يعمل حتى الآن في كشف أسرار «المادة»، وألف كتابًا قال فيه: «إننا كلما أوغلنا في دراسة المادة أدركنا أننا لم نعرف عنها شيئاً... فسوف يظل دائماً شيء فيها مخفياً عنّا». فلما سأله: مخفي بمن؟ أجاب: بالله! ثم وصف متاعبه في استمرار البحث بالقوانين المعروفة، إذ اكتشف أنه بعد التوغل إلى أمد بعيد توقفت القوانين عن العمل، وأنه دخل في مرحلة لم تعد تسري فيها هذه القوانين الطبيعية المعروفة في الأرض، مما جعله يسأل نفسه: أترى علم الفيزياء الذي نمارسه ليس في الحقيقة علماً واحداً! أي إنه يوجد علمان كل منهما يعمل مستقلاً عن الآخر: علم للمرئيات، وعلم للمخفيات... أو بعبارة أخرى علم للمحسوسات أو لهذه الدنيا، وعلم فيزياء آخر لغير المحسوسات؛ أي لغير دنيا البشر، أي للأخرة... وكل منهما له قوانينه الخاصة التي لا تسري إلا على عالمه؟

معنى ذلك عندي أن انتقالنا إلى العالم الآخر سيضعنا في عالم لا نخضع فيه للقوانين البشرية... وقد جاءت إشارة إلى ذلك في قرآنك الكريم يا ربي (سورة الطلاق) حيث قلت في هذه الآية: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾^٧ (الطلاق: ١٢). وجاء

^٦ ألفريد كاستلر (١٩٠٢م-...) عالم فرنسي حصل على جائزة نوبل في الفيزياء ١٩٦٦م لأبحاثه في تفاعل الضوء والمادة، وهو أبو الليزر ومؤلف كتاب «المادة هذا المجهول»، وقد كانت له محاورات مع «توفيق الحكيم» عن علاقة الدين بالعلم من خلال المؤتمر الذي نظّمته منظمة اليونسكو ١٩٧٧م، وجمعت فيه أساطين الفكر للتنبؤ بمستقبل البشرية، ونشر كل ذلك في مطبوعات اليونسكو.

وكاستلر يرى ألا تعارض بين الدين والعلم، وأن العلم قائم على السببية، والدين قائم على الغائية بمعنى أن غاية الدين الوصول إلى معرفة الله والتقرب إليه، أما العلم فهو ربط السبب بالنتيجة في الوصول إلى المعرفة على أساس الحواس.

المعنى أن الإنسان الكامل يحتاج إلى العلم الدنيوي على أساس الحواس والعقل. كما يحتاج إلى الدين المعتمد على الحدس والبصيرة لإدراك آخرته على أساس الإحساس والقلب... والإنسان الكامل كما قال الإسلام يعيش لدنياه وآخرته.

^٧ الآية ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (سورة الطلاق: آية ١٢)، كذلك جاء في تفسير الإمام الحافظ ابن كثير ص ٣٨٥: قال ابن جرير في تفسيرها: «لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتكم وكفركم تكذيبكم بها».

وقال: «روى البيهقي في كتاب الأسماء والصفات هذا الأثر عن ابن عباس فقال: أنبأنا أبو عبد الله حدثنا أحمد بن يعقوب حدثنا عبيد بن غنم النخعي أنبأنا علي بن حكيم حدثنا شريك عن عطاء بن السائب عن

في تفسير «القرطبي»^٨ نقلًا عن «الماوردي»: على أنها سبع أرضين بعضها فوق بعض، تختص دعوة أهل الإسلام بأهل الأرض العليا، ولا تلزم مَنْ في غيرها من الأرضين وإن كان فيها مَنْ يعقل من خلق مميز.

معنى ذلك أنَّ الأديان نسبية تختص بها أرض دون أرض؛ لأنَّ البشرية نفسها نسبية...^٩ وكأنَّك يا ربي تلمح إلى ما سوف يكتشفه العلماء بعد قرون في شخص أينشتين.

أبي الضحى عن ابن عباس أنه قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، قال سبع أرضين في كلِّ أرضٍ نبي كنببكم، وآدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى.. وجاء في صفحة ٢٥٢ الجزء الخامس من كتاب «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني»: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ في العدد، وفيه دلالة على أنَّ بعضها فوق بعض كالسموات، وعن بعض المتكلمين أنَّ المثلية في العدد خاصة وأنَّ السبع متجاورة. وقال ابن كثير: ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم فقد أبعد النجعة وخالف القرآن، واختلَّف: هل أهل هذه الأرضين يشاهدون السماء ويستمدون الضوء منها؟ فقول: يشاهدونها من كل جانب من أرضهم ويستمدون الضوء منها، وهذا قول من جعل الأرض مبسوطة، وقيل: لا إنما خلق الله لهم ضياءً يشاهدونه، وهذا قول من جعل الأرض كرة. قال ابن جرير: حدَّثنا عمرو بن علي ومحمد بن مثنى، قال: حدَّثنا محمد بن جعفر حدَّثنا شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي الضحى عن ابن عباس في هذه الآية قال: في كل أرض مثل إبراهيم ونحو ما على الأرض من الخلق، هكذا أخرجه مختصرًا وإسناده صحيح وأخرجه الحاكم والبيهقي.

^٨ أبي عبد الله القرطبي وتفسيره:

عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي من العلماء الزاهدين المتعبدين توفِّي سنة ٦٧١هـ/١٢٧٣م.

تفسيره: «الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمَّن من السُّنة وآي الفرقان» وهو من أجلِّ التفاسير وأعظمها نفعًا، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ. ويقول الإمام القرطبي في مقدمة تفسيره: «... وشرطي في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائلها والأحاديث إلى مصنفيها، فإنَّه يُقال من بركة العلم أن يُضاف القول إلى قائله... إلخ»، وهو في الحق قد أثبت في تفسيره أقوال القائلين حتَّى المخالفين له في الرأي. وقد قام توفيق الحكيم بعمل تلخيص لتفسير القرطبي على منوال مختار الصَّحاح وأسماء «مختار تفسير القرطبي».

^٩ النسبية وتطبيقها في تفسير الحياة والأديان: جاء ذكر النسبية في الأديان تعليقًا على قول الماوردي في تفسيره لقلوه تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ (سورة الطلاق: الآية ١٢). ذاكراً أنَّ دعوة أهل الإسلام تختص بأهل الأرض العليا ولا تلزم من في غيرها من الأرضين وإن كان فيها

كما أوحيت إلى رسولك محمد في قرآنك بقولك: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^{١٠} والخشية كما فسرها بعض المفسرين ترمز إلى التقدير والإجلال؛ حتى لقد قال

من يعقل من خلق مميز ... فعلقْتُ على ذلك بأنَّ الأديان ملزمة بالنسبة إلى إمكان التبليغ ... أي أنها «نسبية» على هذا الأساس: وهو وصول التبليغ، فإذا تعدَّر هذا الوصول والإيصال فلا إلزام ... فالنسبية هنا مرتبطة بإمكان تبليغ الرسالة؛ لأنَّ الرسالة لا تتم إلاَّ بالتبليغ.

(فصل) تحت عنوان: «آية نبوة محمد عقلية علمية وسائر آياته الكونية»، قال السيد رشيد رضا: جعل الله تعالى نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها وفي موضعها، لأنَّ البشر قد بدءوا يدخلون في سنِّ الرشد والاستقلال النوعي الذي لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سنن الكون، بل لا يكمل ارتقاؤهم واستعدادهم بذلك، بل هو من موانعه، فجعل حُجَّة نبوة خاتم النبيين عين موضوع نبوته، وهو كتابه المُعْجِز للبشر بهدأيته وعلومه وإعجازه اللفظي والمعنوي ليربي البشر على الترقى في هذا الاستقلال إلى ما هم مستعدون له من الكمال. هذا الفصل بين النبوات الخاصة السابقة على الإسلام، والنبوة العامة الباقية، قد عبَّر عنه النبي ﷺ بقوله: «ما من الأنبياء من نبي إلاَّ وقد أُعْطِيَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة» متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأما ما أقامه الله تعالى به من الآيات الكونية أو المعجزات فلم يكن لإقامة الحُجَّة على نبوته ورسالته، بل كان من رحمة الله تعالى وعنايته به وبأصحابه في الشدائد كنصرهم على الكُفَّار في بدر والأحزاب ... المنار، ج ١١، ص ١٥٩ وما بعدها.

١٠ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (سورة فاطر: الآية ٢٨).

– قال الإمام النسفي في تفسير هذه الآية:

قرأ أبو حنيفة وابن عبد العزيز وابن سيرين رضي الله عنهم: «إنما يخشى الله من عباده العلماء»، والخشية في هذه القراءة استعارة والمعنى: إنَّما يُعْظَمُ الله من عباده العلماء ا.هـ.

– وقال الإمام القرطبي في تفسيرها:

فإن قلت فما وجه قراءة من قرأ: «إنما يخشى الله» بالرفع «من عباده العلماء» بالنصب وهو عمر بن عبد العزيز، وتُحَكَّى عن أبي حنيفة؟ قلت: الخشية في هذه القراءة استعارة، والمعنى: إنَّما يُجْلَهُمُ الله ويُعْظَمُهُمُ كما يُجْلُ المهيب المخشي من الرجال من بين جميع عباده. ا.هـ. كلام القرطبي.

إنَّ الله تعالى يُخاطب الناس على قدر عقولهم، وبالوسيلة التي يفهمون بها، وفي عهد الرسالة الإسلامية كانت اللغة هي الوسيلة الوحيدة للتفاهم والتبليغ، ولكن الله تعالى وهو علَمُ الغيوب، كان يعلم أنَّ مستقبل البشر سيأتي بوسيلة أخرى تُضاعف من قدراتنا على فهم عظمة الله وهي العلم (الذي يكشف لنا

أبو حنيفة^{١١} فيمن قرأ «إنما يخشى الله» بالرفع أي أن الله يخشى العلماء: إن في هذه القراءة استعارة؛ والمعنى أن الله «إنما يُجلهم ويُعظمهم» ... وسواء أكان التقدير والإجلال من العلماء لله، أم من الله للعلماء؛ فإنَّ المعنى هو أن هناك اتصالاً راقياً بين الخالق والمخلوق ... وهو جوهر العبادة الراقية للعقل الإنساني الراقى، بارتفاعه إلى حيث يدرك قدرة الخالق وعظمته.

وليس أدل على ذلك الإدراك والإجلال من كلمة ذلك العالم «أينشتين» في قوله: «إنِّي أدين بأعمق الإجلال والتعظيم لهذه القدرة العجيبة التي تُفصح عن نفسها في كل جزيء من جزيئات الكون» ... وكلمة «كاستلر» عندما قال: «كلما ازداد تعمُّقنا في دراسة تركيب المادة تضاعف اقتناعنا بأننا ما عرفناها ... فإنَّ جزءاً منها سوف يظل إلى الأبد بعيداً عن تعليلنا لأنَّه مخفي عنَّا ... مخفي بمن؟ مخفي بالمُبدئ الأوحد: الله.»

إنَّ كل ما نعرفه عن العالم المحسوس لا قيمة له في فهم العالم غير المحسوس ... وهكذا حيرة العالم والعلماء اليوم! كلُّما توغلوا في العلم اقتربوا من الخشوع لله ... وصدقَ يا ربي ما أوحيت به في قرآنك إلى نبيك ورسولك من أنك تخشى من عبادك العلماء ... ولذلك

عن وجود الفيروسات في دقائقها والمجرات في أحجامها) ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (سورة فاطر: من الآية ٢٨) باعتبار أنَّهم في وقت قادم سيعرفون من عظمة الله ما لا هو معروف للبشر في عهد النبي، ولذلك لم يهمل وسيلة العلم في فهم عظمة الخالق، وهذا تفسير لاقتراحي على الأزهر أن يُنشئ قسماً أعلى يُدرِّس فيه العلم فيما وصل إليه من مستويات معاصرة.

^{١١} الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان (٨٠-١٥٠هـ/٦٩٩-٧٦٧م). صاحب مذهب الحنيفية، أحد مذاهب أهل السنة الأربعة في الإسلام. وُلِدَ بالكوفة من أصل فارسي، لم تمنعه تجارة الحرير من طلب العلم والنبوغ فيه، فأخذ الفقه عن حماد بن أبي سليمان، وروى عن التابعين وتابعيهم من أهل العراق والحجاز. منهجه الأخذ من الكتاب والسنة وآراء الصحابة وفتاواهم، وهو مع ذلك يأخذ بالقياس والاستحسان، ويحترم العرف، ويأخذ به، وقد وُصِفَ بأنَّه من مجددي الإسلام في عصره. ونراه مع ذلك لم يسلم، على فضله، من العنت والأذى حتَّى مات على أثر تعذيب الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور له. صار مذهبه بعد ذلك مذهباً رسمياً للدولة العباسية، وللدولة العثمانية، وفي مصر أيضاً.

أعتقد أنه من الطبيعي والمنطقي أن مثل هؤلاء العلماء المؤمنين بك سوف يكون مصيرهم مغفرتك وأنت المغفور. ١٢

١٢ غفران الله للصالحين من أهل الكتاب والذين لا يشركون به شيئاً ويعظمونه ويُوحِدونه، نزلت فيه عدة آيات لا يعلم تأويلها إلا الله، وقد أورد السيد رشيد رضا عليه الرحمة والرضوان في تفسير المنار في تفسيره هذه الآية: ص ٣٣٦ جزء أول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة البقرة: الآية ٦٢). هذه الآية يوضحها الحديث الذي أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال:

التقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى فقال اليهود للمسلمين: نحن خير منكم وديننا قبل دينكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن على دين إبراهيم، ولن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى مثل ذلك، فقال المسلمون: كتابنا بعد كتابكم، وديننا بعد دينكم، وقد أمرنا أن نتبعونا، نحن خير منكم نحن على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحق، ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا. فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (سورة النساء: الآية ١٢٣).

قال السيد رشيد رضا: «أي أن حكم الله العادل سواء وهو يُعاملهم سنة واحدة لا يُحابي فيها فريقاً ويظلم فريقاً، وحكم هذه السنة أن لهم أجرهم المعلوم بوعدهم الله لهم على لسان رسوله، ولا خوف عليهم من عذاب الله يوم يخاف الكفار والفجار مما يستقبلهم ولا هم يحزنون على شيء فاتهم ...»
يقول السيد رشيد رضا في الإيمان بالعقل: «ذهب جمهور الحنفية وكذلك المعتزلة إلى أن أصول الاعتقاد تدرج بالعقل، فلا تتوقف المؤاخظة عليها على بلوغ دعوة رسول، وإنما يجيء الرسل مُؤكِّدين لما يفهم العقل موضحين له ومبينين أموراً لا يستقل بإدراكها: كأحوال الآخرة وكيفية العبادة التي ترضي الله تعالى.

... ويقول الإمام الغزالي إنَّ الناس في شأن بعثة النبي ﷺ أصناف ثلاثة:

- (١) مَنْ لم يعلم بها بالمرّة — أي كأهل أمريكا لذلك العهد — وهؤلاء ناجون حتماً (أي إن لم تكن بلغتهم دعوة أخرى صحيحة).
- (٢) ومن بلغته الدعوة على وجهها ولم ينظر في أدلتها إهمالاً أو عناداً أو استكباراً وهؤلاء مؤاخذون حتماً.
- (٣) ومن بلغته على غير وجهها أو مع فقد شرطها، وهو أن تكون على وجه يحرك داعية النظر، وهؤلاء في معنى الصنف الأول.

(وأقول) عبارته في كتاب فيصل التفرقة في هذا الصنف هي: وصنف ثالث بين الدرجتين بلغهم اسم محمد ولم يبلغهم نعتة وصفته، بل سمعوا منذ الصبا أن كذاباً مدلساً اسمه محمد ادعى النبوة، كما سمع

والعلماء أقدر على إقناعنا بوجودك ووحدانيتك من الفلاسفة الذين لا يعتمدون إلا على لغتهم وحدها وهي في الغالب عاجزة أو ملتوية ... ولنقرأ ما يقوله «ابن سينا»^{١٣} مثلًا في واجب وجودك: «إنَّ واجب الوجود يجب أن يكون ذاتًا واحدةً ... والذي يجب وجوده بغيره فهو غير بسيط الحقيقة ... لأنه ليس الفرد وغيره زوج تركيبي ... إلخ إلخ»

ولكن الله في حديثي هذا معه جعل يستمع فقط ... وتركني أوصل كلامي ... فقلت: ولكن يا ربي بعض رجال الدين عندنا يرون غير ذلك ... يرون مصير هؤلاء العلماء من غير المسلمين النار؛ لأنهم لم يقولوا لا إله إلا الله شهادة لغوية ... مع أنَّ العلماء قالوها بالممارسة وليس باللفظ ... ومارسوا قدرة الخالق ووحدانيته في أسلوبه المعجز في خلق الكون وقوانينه التي تدل على أنه الواحد، وأنَّ أسلوبه الواحد في كل جزيء من جزيئات

سببنا أنَّ كذابًا يُقال له المققع (لعنه الله) تحدَّى بالنبوة كاذبًا، فهؤلاء عندي في معنى الصنف الأول، فإنَّ أولئك مع أنَّهم لم يسمعوا اسمه لم يسمعوا ضد أوصافه، وهؤلاء سمعوا ضد أوصافه، وهذا لا يُحرِّك داعيه النظر في الطلب. اهـ.

وأقول في حل معنى الآية على هذا: «إنَّ أهل الأديان الإلهية، وهم الذين بلغتهم دعوة نبي على وجهها وشرطها إذا آمنوا بالله واليوم الآخر على الوجه الصحيح الذي بيَّنه نبيهم وعملوا الأعمال الصالحة فهم ناجون مأجورون عند الله تعالى، وإذا آمنوا على غير الوجه الصحيح كالمشبهة والحلولية والاتحادية وغيرهم، فلا ينالهم من هذا الوعد شيء بل يتناولهم الوعيد المذكور في الآيات الأخرى، وكذلك حال الذين يؤمنون بأقوالهم دون أعمالهم، فإنَّ الإيمان الصحيح هو صاحب السلطان الأعلى على القلب، والإرادة التي تُحرِّك الأعضاء في الأعمال ... ولا يُعقل أن يكون من لم تبلغهم الدعوة بشرطها أو مطلقًا ناجين على سواء، وأن يكونوا كلهم في الجنة كأتباع الرسل في الإيمان الصحيح والعمل الصالح. إذ لو صحَّ هذا لكان بعث الرسل شرًّا من عدمه بالنسبة إلى أكثر الناس، والمعقول الموافق للنصوص أنَّ الله تعالى يُحاسب هؤلاء الذين لم تبلغهم دعوة ما بحسب ما عقلوا واعتقدوا من الحق والخير ومقابلهما». اهـ. كلام السيد رشيد رضا، ص ٣٣٨-٣٣٩، تفسير المنار، ج أول، طبعة المنار.

١٣ ابن سينا (٣٧٥-٤٢٨هـ / ٩٨٠-١٠٣٦م).

فيلسوف وطبيب مسلم. أصبح حُجَّةً في الطب والفلك والرياضة والفلسفة قبل سن العشرين. تنقَّل بين قصور الأمراء مشتغلًا بالتعليم والسياسة وتدبير شئون الدولة، توفِّي ببهمان. قسَّم الفلسفة إلى ثلاثة: المنطق للوجود الذهني، الطبيعيات للوجود المادي المحسوس، الإلهيات للوجود العقلي.

أمَّا من ناحية علم النفس فهو يتبع أفلاطون وأرسطو. وهو يدين بنظرية الفيض التي تشرح في نظره كيفية صدور الكثرة عن الواحد.

الخليقة لا يُمكن أن يصدر عن غيره ... ومع ذلك سبق لك يا ربي في قرآنك أن حدّرت من الغلو في الدين (سورة المائدة)،^{١٤} ولم يغفروا لمن قدرك، وهم لا يعرفون عنك إلا ما حفظوه من ألفاظ لغوية ... ولن يُقدروك قدرك إلا بالاقتراب من أسرار خلقك ... ولن يتسنى ذلك بلغة أخرى ... هي لغة القوانين العلمية ... ولذلك إذا سمحت لي بالتنبؤ فإنّي أتنبأ بأنّ رجال دينك في المستقبل سوف يكونون من بين رجال العلوم ... حتّى يقتربوا منك عن طريق أسلوب الخلق وليس أسلوب اللغة وحده.

وأنا أسف يا ربي أسفًا شديدًا، ولا اعتراض لي عليك، ولكنّها مجرد ملاحظة، لماذا وأنا أحبك هذا الحب لم تعطني لمعرفة غير وسيلة اللغة، ولم توجهني إلى دراسة العلم! بل لقد كنت أكره المواد العلمية وأرسل منذ الصغر في دروس الحساب!

بمناسبة الحساب ... يوم الحساب ... هل هذا الحساب للجميع؟ طبعًا ... ألم يرد في القرآن: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ نَمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام: ٣٣).^{١٥}

يُحشرون! ... نعم ... إذن هو يوم حشر لهم أيضًا! ... لكن يا ربي هل هم لهم أخطاء؟ ... طبعًا، يجب أن أعرف ذلك، أليسوا مخلوقات؟! ما من مخلوق إلا وله أخطاؤه ...

ولكن هل الجميع؟ ... حتّى الأنبياء؟
أعتقد أنّ الأنبياء معصومون ... معصومون من الفعل، وليس من النية ... لأنّ يوسف

^{١٤} سورة المائدة الآية ٧٧:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

فإنّ تعالى يصف المغلاة والتطرّف في الدين بالضللال والإضلال «ضلوا وأضلوا»، وينهاها أن تفعل مثل أهل الكتاب وتغلو في ديننا، فالنصارى أكثرهم ألهوا عيسى عليه السلام ونحن منهيون عن تأليه محمد عليه السلام، واليهود غالوا في عصبيتهم وتطرّفهم في تصوير «شعب الله المختار» فضلوا وأضلوا.

^{١٥} ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ نَمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (سورة الأنعام: الآية ٣٨).

هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ... ١٦ أَي تَمَّتْ النِّيةَ وَلَكِنَّهُ تَوَقَّفَ عَنِ الفِعْلِ ... لِأَنَّهُ رَأَى بَرهَانَ رَبِّهِ،
أَي تَدَخَّلْتَ أَنْتِ يَا رَبِّي وَعَصَمْتَهُ عَنِ الفِعْلِ.

١٦ ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ
عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ الآية ٢٤ من سورة يوسف في القرآن الكريم قد اختلفت فيها التفسيرات. وقد جاء
في «القرطبي» بشأنها الآتي:

قال أبو حاتم: كنت أقرأ غريب القرآن على أبي عبيدة فلما أتيت على: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾
الآية، قال أبو عبيدة: هذا على التقديم والتأخير، كأنه أراد ولقد هَمَّتْ بِهِ ولولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها
.... وقال أحمد بن يحيى: أَي هَمَّتْ زليخا بالمعصية، وكانت مُصْرَّةً، وهَمَّ يوسف ولم يُواقع ما هَمَّ له، فبين
الهمتين فرق.

وقيل: هَمَّ بِهَا تمنى زوجيتها. وقيل هَمَّ بِهَا أي بضربها ودفعها عن نفسه، والبرهان كَفَّهُ عن الضرب،
إذ لو ضربها لأوهم أنه قصدها بالحرام فامتنت فضر بها. وقيل إنَّ هَمَّ يوسف كان «معصية»، وإنَّه
جلس منها مجلس الرجل من امرأته، وإلى هذا القول ذهب معظم المفسرين وعامتهم، فيما ذكر القشيري
أبو نصر، وابن الأثيري، والنحاس، والماوردي وغيرهم.

قال ابن عباس: حل الهميان وجلس منها مجلس الخائن، وعنه: استلقت على قفاها وقعد بين رجليها
ينزع ثيابه.

قال سعيد بن جبیر: أطلق تكة سراويله، وقال مجاهد: حلَّ السراويل حَتَّى بَلَغَ الأليتين ... وجلس منها
مجلس الرجل من امرأته. قال ابن عباس: ولما قال: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُءُ بِالْغَيْبِ﴾ (سورة يوسف:
من الآية ٥٢). قال له جبیريل: ولا حين هممت بها يا يوسف؟ فقال عند ذلك: ﴿وَمَا أُبْرئُ نَفْسِي﴾ (سورة
يوسف: من الآية ٥٣). قالوا: والانكفاف في مثل هذه الحالة دال على الإخلاص، وأعظم للثواب. قلت: وهذا
كان سبب ثناء الله تعالى على نبي الكفل ... وجواب «لولا» على هذا محذوف، أي لولا أن رأى برهان ربه
لأمضى ما هَمَّ به ... انتهى كلام القرطبي.

– ولقد رفض الإمام ابن قتيبة تفسير الهم بالفرار أو الضرب وردّه، فقال في كتابه تأويل مشكل
القرآن ص: ٤٠٣-٤٠٤: «يستوحش كثير من الناس من أن يَلْحَقُوا بالأنبياء ذنوبًا، ويحملهم التنزيه لهم
صلوات الله عليهم على مخالفة كتاب الله عز وجل واستكراه التأويل، وعلى أن يلتمسوا لألفاظه المخارج
البعيدة بالحيل الضعيفة وذلك كتأويلهم لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ أنها هَمَّتْ
بالمعصية وهَمَّ هو بالفرار منها! وقال بعضهم: وهَمَّ بضربها! والله تعالى يقول: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ
رَبِّهِ﴾. أفتراه أراد الفرار منها أو الضرب لها، فلما رأى برهان ربه أقام عندها وأمسك عن ضربها؟! هذا
ما ليس به خفاء ولا يغلط متأوله، ولكنها هَمَّتْ بالمعصية هَمَّ نية واعتقاد، وهَمَّ نبي الله ﷺ هَمًّا عارضًا
بعد طول المراودة، وعند حدوث الشهوة التي أتى أكثر الأنبياء في هفواتهم منها، روى الإمام أحمد في
مسنده عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ما مِنْ أَحَدٍ مِنْ وَلَدِ آدَمَ إِلَّا وَقَدْ أَخْطَأَ أَوْ هَمَّ بِخَطِيئَةٍ لَيْسَ
يُحْيِي بِنِ زَكْرِيَا»، انتهى كلام الحافظ ابن قتيبة.

أنت تعصم مَنْ تحب عن الفعل ... أمّا النية فهي لصيقة الغريزة البشرية ... وهل هناك حساب على النية؟ ... طبعاً ... ولكنك غفور ... ولماذا الحساب إذن؟ ... لأنه القانون ... أساس ونظام ... وأنت خالق الكون ... أي فوق القانون ...^{١٧} لا ... بل أنت خالق القانون الذي يتم به تركيب الكون ... فإذا فسد القانون اختلَّ تركيب الكون ... فأنت لست فوق القانون ... ولكنك الحريص عليه ... لأنه مَنْ خلقك ... ووليد حكمتك ... فعلاً ... حرصك يا ربي على قانونك هو إرادتك العليا ... لأنَّ جوهر إرادتك هي الكينونة ... هي الكون والوجود، وخلود الوجود ... ولذلك سلَّحت كل موجود بأدوات وجوده ... ولنا نحن البشر جعلتْ يا خالقنا الحبيب أدوات وجودنا: الدين، والعلم، والغريزة ... وما نُسمِّيه الغريزة هي معرفة تكوّنت في أعماقنا منذ القَدَم ... وتكدَّست وتكلَّست ... وصارت تعمل تلقائياً مع وجودنا ... وأصبحت قوة لا يصدُّ طغيانها إلاّ الدين والعلم ... أمّا إرادتك الإلهية يا ربي فهي التعادلية بين الثلاثة، فلا تطغى قوة على قوة، بل يعمل الكل معاً في بقاء الإنسان داخل نطاق التوازن الكوني والكينونة الكبرى ... وعبادتك يا ربي، التي يُجسِّدها الدين، هدفها الحقيقي ليس الإحسان إليك؛ لأنك قائم بذاتك لا تحتاج إلى أحد ولا إلى شيء، فقد قلت في قرآنك كثيراً: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (الإسراء: ٧) ^{١٨} كما قلت: ﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ^{١٩} لأنَّ الله يعلم أنَّ البشر ضعيف، ولكي ينقذ وجوده من القوة الطاغية التي لشيطان الغريزة المدمرة يجب أن يستمد قوة الوجود من الله الموجود الخالد،

وإن كان الحافظ ابن كثير في قصص الأنبياء يميل إلى الفصل بأنَّه لم يقع في الفاحشة وأنَّ الله أعلم بتأويل باقي الآيات.

^{١٧} قولي إنَّ الله خالق القانون ليس فوق القانون وهو الحريص عليه بمعنى أنَّ الله لا يُحطِّم القوانين التي وضعها للبشر ولا يخرج عليها وإن كان هو خالقها، إذ بإمكانه يوم القيامة معاقبة المحسن وإثابة المسيء، وألاً يكون الجزاء على قدر العمل، ولكن الله لا يُخلف الميعاد، وإن كان يستطيع خلفه، فهو يحترم قانونه ولا يخرج عليه فيُثيب المحسن ويُعاقب المسيء ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (سورة الزلزلة: الآيتان ٧، ٨)، و﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (سورة الأنعام الآية: ٥٤).

^{١٨} ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ (سورة الإسراء الآية: ٧).

^{١٩} ﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ (سورة الإسراء الآية: ١٥).

الحديث الأول

بذكره دائماً، والاستعانة به ضد قوة الجاذبية الغريزية المفسدة لتركيبه ... فالدين إذن أداة للإنسان ... ولم يوجد الله إلا أداة تُحافظ على الإنسان باقياً، ضمن التركيب الكوني الذي خلقه الله بقدرته وإرادته وحرص عليه ... فالدين للعابد لنفعه، وليس للمعبود الغني بنفسه.

وبعد ... إنِّي لا أُحدِّثك إلا بما أنت أعلم به مني ... ولكن، أَوَكان من الممكن أن أُحدثك فيما لا علم لك به وأنت يا ربي العظيم العليم بكل شيء ... ولكنك لا تسأم حديثي؛ لأنك لا تعرف السأم ... فإنك سميع دائم السمع للغط مخلوقاتك الكثيرة من أبعد المجرات إلى أصغر الحشرات.

الحديث الثاني

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾.

(قرآن كريم، النساء: ٤٢)

فلنواصل الحديث يا ربي العظيم ... لقد جاء في قرآنك الكريم ذكر لأديانك الثلاثة وكتبها السماوية: التوراة والإنجيل والقرآن ... اسمح لي أن أسأل: أكان من الضروري أن تنزل هذه الأديان والكتب الثلاثة؟
لا بُدَّ طبعًا أن يكون لذلك حكمة ... ولماذا أسأل؟ لقد خلقت لي العقل ... وهو أعجب مخلوقاتك ... خلقتة لنا لنفكر به في حكمتك ...
ولقد فكرتُ ... ولكنني غير واثق برأيي ...
ما أقوله هو من عقلي ... والعقل الذي وضعته أنت في رأسي درجات ... وأنا أذكر ما ورد عنك سبحانه في حديث قدسي خاطبت به العقل^١: «ما خلقت خلقًا أعجب إليّ منك،

^١ حديث خلق العقل: أورده الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿بِنِ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (الآية ١ من سورة القلم) قال:

روى الوليد بن مسلم، قال: حدّثنا مالك بن أنس عن سمي مولى أبي بكر عن أبي صالح السمان عن أبي هريرة قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: أول ما خلق الله القلم، ثم خلق النون وهي الدواة، وذلك قوله تعالى: ﴿بِنِ وَالْقَلَمِ﴾ ثم قال له اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة من عملٍ أو أجلٍ أو رزقٍ أو أثرٍ، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة — قال — ثم ختم فم القلم فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة. ثم خلق العقل، فقال الجبار: ما خلقت خلقًا أعجب إليّ منك، وعزتي

وعزتي وجلالي لأكملنك فيمن أحببت ولأنقصنك فيمن أبغضت»، ولست أنا على ثقة بدرجة حبك لي، فكيف أثق إذن بدرجة عقلي الذي سأفكر به في شأن من شئتوك!
 إيماني بوحدانيتك نبع من إدراك عقلي لوحداية أسلوبك ... فأسلوبك واحد لكل مخلوق حي: إنسان أو حيوان أو نبات ... أوجدت معه بوجوده نوعاً من المعرفة الذاتية التلقائية في صورة الغريزة ... فأول ما يعرف هو أين يجد طعامه؛ فيمد يده إلى ثدي أمه ... وأين يجد الخطر على حياته فيخاف من النار ...
 لأن إرادتك العليا يا ربي هي المحافظة على وجود ما أوجدته ...
 وهذه المحافظة تحتاج إلى معرفة ... وهذه المعرفة توجدتها أنت فينا بالغريزة، وأولى الغرائز فينا هي غريزة البقاء مقترن بك.

ثم يتم الوليد مرحلة الولادة ويبدأ يحبو، ثم يدخل مرحلة الإدراك الذي يخرج من ذاته إلى ما حوله، ثم إلى اللعب بما يقع في يده، وقد يحطمه ... ثم يقف على قدميه ويسير، ويبدأ في النطق والأسئلة عما يراه، ويدخل في الطفولة وينمو إدراكه مع عضلاته فيدفعه ذلك إلى النشاط في صورة اللعب ... كل ذلك في منطقة الحكم الغريزي الذي يُنمي فيه عضلاته ويربّي فيه مداركه الأولى، إلى أن يدخل في مرحلة الصبا فيزداد إدراكه بنفسه وبالعالم الخارجي، فيتلقى من أهله ومن أصدقائه ما يجعله يعيش في مجتمع صغير له نظامه ومعتقداته ... إلى أن يخرج منه إلى مرحلة الشباب فتتم فيه العاطفة، وينمو فيه من المشاعر ما يُنتج لوناً من الحياة فيه جماله ومثالياته، ثم يدخل بعد ذلك في مرحلة الرجولة فيتم فيه العقل واستقراره ...

وعلى هذا الترتيب وهذا الأسلوب أنزلت أنت يا ربي بحكمتك أديانك السماوية: أنزلت موسى والتوراة في المجتمع الصغير بنظامه الطائفي وعقيدة الوحداية التي تمت في مرحلة الصبا الباكر للبشرية مع قوته المادية، وكادت تطغى على قوة العاطفة ... فجاءت مرحلة الشباب بعاطفة الحب والمثل العليا في شخص «المسيح» ... إلى أن رأيت حكمتك يا ربي أنه قد آن الأوان للبشرية أن تدخل مرحلة «الواقع» بمعرفتها الحقيقية ذاتها بالعقل؛ فجئت

وجلالي لأكملنك فيمن أحببت ولأنقصنك فيمن أبغضت». قال ثم قال رسول الله ﷺ: «أكمل الناس عقلاً أطوعهم لله وأعملهم بطاعته.»

– كذلك أورد هذا الحديث الحافظ ابن كثير في تفسيره الآية من سورة القلم قال: رواه ابن عساكر عن أبي عبد الله مولى بني أمية عن أبي صالح عن أبي هريرة.

برسوك محمد في سنن الأربعين مكتملاً بتجارب الحياة مُمثلاً للبشرية في كل عناصرها، وقلت له في قرآنك: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾^٢ ومراحل البشرية هذه جاء وصفها في كتابي «شهرزاد» (١٩٣٣م) حيث جسدتُ الغريزة في شخصية العبد، وجسدتُ العاطفة والقلب في شخصية قمر، وجسدتُ العقل والفكر في شخصية شهریار، وفي آخر المرحلة العقلية طغى العلم، فضل الإنسان ... وكانت آخر كلمة شهرزاد: «هو العمل على إعادته إلى البشرية» وهو ما جاء به الإسلام قبل ذلك، ولم يفتن إليه المسلمون.

ومرحلة البشرية هي آخر مراحل الإنسان، وفي هذه المرحلة تكتمل في الإنسان قوة تلك العضلة التي اسمها «العقل» الذي وصفته أنت يا ربي بأنه أعجب ما خلقت؛ لأنَّ الإنسان به يعي ذاته وما حوله من خلقك ... ثمَّ يُحلل ماهية الأشياء والمخلوقات إلى أن يرقى إلى إدراك وجودك ... وهذا الإدراك الذاتي بالعقل هو قدرة الإنسان التي أردتها له، ويتميز به عن سائر وجودك بوسائل أخرى غير العقل والتفكير ... ولذلك أنت يا ربي قد كررت ورددت في قرآنك كلمة «البشر» وكلمة «العقل»، ولم تجعل رسوك محمداً يقنع البشر بالمعجزات،

٢ الآية ١١٠ سورة الكهف وتامها، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

(فصل) عصمة الأنبياء ومتعلقها جواز الخطأ في الاجتهاد عليهم (تفسير المنار، ج ٢١، ص ٢١٢).
المتكلمون استدلوا على ما سمّوه عصمة الأنبياء بالعقل لا بالنقل، وتأولوا الآيات والأحاديث الواردة بوقوع الذنوب منهم بل الدالة على إمكانها، وليس المراد بدلالة العقل على عصمتهم أنها كعصمة الملائكة منافية لطباعهم، فإنَّ ممَّا فضلوا به على الملائكة أنهم بشر كسائر البشر جُبلوا على الشهوات الجسدية، وداعية كل من المعصية والطاعة، كما علم من قصة أبيهم آدم، ولكنهم بقوة الإيمان ومعرفة الله عز وجل والخوف منه والرجاء فيه والحب له يرجحون الطاعة على المعصية بملكة راسخة فيهم، يعصمهم الله تعالى بها من الخطأ في التبليغ، ومن الكتمان لشيء ممَّا أمرُوا به منه، ومن مخالفته، ومن الرذائل والمعاصي المنافية للرسالة، المبطة للحُجَّة، دون الخطأ في الاجتهاد والرأي، الذي لا يُخالف نص الوحي، فإذا وقع منهم بهذا الاجتهاد ما كان الخير والكمال لهم في علم الله خلافه، بيّنه الله لهم تعليمًا، وعلمهم ما هو الأليق بهم تربيّةً وتكميلًا. ومنه اجتهاد نوح الذي رجع له بالحنان الأبوي جواز دخول ابنه الكافر فيمن وعده الله بنجاتهم كما بيّناه في موضعه، ولم يعلم أنّ سؤاله ربه ما ليس له به علم قطعي ممنوع إلا بعد أن سأله نجاه ولده فأجاب بهذه الموعظة؛ وكذلك فصلنا هذه المسألة في تفسير أخذ النبي الفداء من أسرى بدر من سورة الأنفال (٦٧)، وتفسير عتاب الله لنبيه على الإذن لبعض المنافقين في التخلف عن غزوة تبوك والعفو عنه في سورة التوبة (٤٣).

كما كان الحال مع الأنبياء الذين سبقوه، عندما كانت البشرية في مراحل الطفولة والصبا والشباب، ولم يكن قد حان الحين بعد لإقناع البشر بوجود الله ورسله بالإدراك الفكري وحده عن طريق العقل ... وهذه هي حكمتك.

وقد نشرتُ في أحد كتبي «سجن العمر»: «إننا نُولد في غيبوبة تامة من عقولنا؛ فكل عضو يتحرَّك حين نولد إلاَّ الجزء الذي ندرك به الحياة التي هبطنا إليها ... ترى ماذا كان يحدث لو أننا واجهنا الحياة بعقولٍ مُدركة من اللحظة الأولى؟ كُنَّا نفقد عقولنا للفور من هول الأعجوبة ... أعجوبة الحياة في انكشافها المفاجئ أمام القادم من عالم الظلام والعدم، ولكن الحياة تتكشَّف لنا على مراحل ...»

وهذا هو المعنى والسبب في وصفك لرسولك محمد بأنَّه خاتم الأنبياء، وأنَّ الإسلام خاتم الأديان السماوية ... لأنَّ البشرية بعد أن أدخلتها يا ربي في مرحلة المعرفة الفكرية للخالق والمخلوق بعقلها المفكر فقد تركتها لهذا العقل ... وهذه آخر مراحل البشرية ... ثمَّ إنَّك يا ربي لا يُمكن أبداً أن تلغي ما خلقت وما أوجدت ... ولذلك أبقيت كل المراحل السابقة موجودة في كيان البشرية والإنسان: فإلى جانب العقل الذي توجَّت به وجوده؛ أبقيت معه الغرائز والعواطف، وجعلت لكل منها ضرورة نافعة، كما أنَّ لكل منها ضرره إذا طغى.

وكان لا بُدَّ من الإسلام، وهو الأخير في أديانك، من أن تُنَاط به مهمة التوازن والتعادل بين الثلاثة: العقل والعاطفة والغريزة ... أي الفكر والقلب والمادة، وجعلت نبيك رسول الإسلام يُمارس الثلاثة ويقول: «حُبَّ إِلِيٍّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثُ: النِّسَاءِ، وَالطَّيِّبِ، وَجُعِلَتْ قَرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ.»^٢

وفي قرآنك تحذير دائم بعدم الطغيان والغلو والإسراف، مع السماح باستخدام هذه القوى الثلاث في حياة البشرية باعتدال.

^٢ حديث «حُبَّ إِلِيٍّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثُ: النِّسَاءِ وَالطَّيِّبِ وَجُعِلَتْ قَرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ.»

- رواه أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي.
- رواه الطبراني في الأوسط من حديث الأوزاعي.
- وكذا في الصغير.
- ورواه الخطيب في تاريخ بغداد.
- والنسائي في السنن.
- والحاكم في المستدرک.

ثُمَّ إِنَّكَ يَا رَبِّي تَذَكَّرُ فِي قِرَائِكَ دَائِمًا بِهَذَا التَّرْتِيبِ: التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالْقُرْآنَ ... مع أَنَّ الْقُرْآنَ خَتَامُ كِتَابِ السَّمَاوِيَةِ ... فَمَا قَصْدُكَ مِنْ ذَلِكَ؟ بِقَدْرِ عِلْمِي وَفَهْمِي، تُرِيدُ أَنْ نَتَذَكَّرَ دَائِمًا أَنَّ مَا خَلَقْتَ وَأَوْجَدْتَ فِي الْمَاضِي لَا تُرِيدُ إِلْغَاءَهُ أَوْ إِعْدَامَهُ ... إِنَّمَا أَنْتَ تُضَيِّفُ وَتُعَدِّلُ، وَلَا تُلْغِي مَا أَوْجَدْتَ ... فَوْجُودَ مُوسَى وَعِيسَى قَبْلَ مُحَمَّدٍ لَيْسَ مَعْنَاهُ إِغْيَابُهُمَا ... وَإِلَّا مَا كُنْتَ ذَكَرْتَهُمَا بِالتَّكْرِيمِ فِي قِرَائِكَ الْخَالِدِ ... وَلَقَدْ كَانَتْ الْمَرْحُومَةُ زَوْجَتِي تَقْرَأُ الْكُتُبَ السَّمَاوِيَةَ الثَّلَاثَةَ بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْقُرْآنَ ذَكَرَهَا بِالتَّكْرِيمِ، وَهِيَ حَسَنَةُ الْإِسْلَامِ ... وَكَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (المائدة: ٦٨).^٤

ولي صديق مسيحي كثير القراءة في القرآن.

ولذلك أعتقد أنك تحب من رجال كل دين أن يقرءوا كذلك كل الكتب السماوية الأخرى ... فإذا امتنع عن ذلك أهل الإسلام بحجة التحريف في تلك الكتب الأخرى، فليُحَدِّدُوا أَمَاكِنَ التَّحْرِيفِ فَقَطْ وَيُنَبِّهُوا إِلَيْهَا، وَيَمْضُوا فِي قِرَاءَةِ الْبَاقِي الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ ... أَمَّا الْإِهْمَالُ التَّامُ لِمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي قِرَائِهِ، فَلَا أَظُنُّ اللَّهَ يَرْضَى عَنْهُ ... فَاللَّهُ تَعَالَى خَلَقَ الْأَدْيَانَ السَّمَاوِيَةَ لِحِكْمَةٍ ... فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ نَتَّبَعَ اللَّهَ فِي حِكْمَتِهِ حَيْثُمَا كَانَتْ.

وَأَنْتَ يَا مَنْ نَفْسِي بِيَدِهِ ... وَتَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ عَنِّي — أَنَا مَخْلُوقُكَ الضَّئِيلُ الْمُحِبُّ لِدَانِكَ الْعَلِيَّةِ — كُلَّ اِهْتِمَامِي الْآنَ هُوَ تَتَّبَعُ حِكْمَتِكَ ... وَلَقَدْ أَرَادَتْ حِكْمَتُكَ حَثَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى

-
- رواه مؤمل بن إهاب في جزئه الشهير وابن عدي في الكامل، وأحمد، وأبو يعلى، وأبو عوانة في مستخرجه الصحيح والبيهقي في السُّنَنِ.
 - والسخاوي في جزءٍ خاصٍّ أفرده لهذا الحديث وذكره في «المقاصد الحسنة».
 - وتكلم الإمام ابن فورك عليه في جزءٍ وشرحه.
 - وكذا ذكره الغزالي في الإحياء.
 - وأخرجه الحافظ العراقي في أماليه.

ولا يكاد يخلو منه كتاب من الكتب المعتمدة، واختلافها على لفظ «ثلاث» فقط، ولكن نص الحديث فيها: «حُبُّ إِلِيَّ النِّسَاءِ وَالطَّيِّبِ وَجُعِلَتْ قَرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

^٤ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (سورة المائدة: من الآية ٦٨).

قراءة كُتبت السماوية للتقريب بين أديانك ... كما لم تُفَرِّق بين أجناس مخلوقاتك ... فقد قال رسول الله ﷺ لرجل: «انظر في وجوه القوم»، فنظر، فقال له النبي: «ما رأيت»؟ فقال رأيت أبيض وأسود وأحمر، فقال رسول الله: «إنك لا تفضلهم إلا بالتقوى!...»^٥

كما أنّ اللغة العربية ليست بشرطٍ لدخول الإسلام، فقد أرسل نبيك صلوات الله عليه برسالة الإسلام إلى أمم لا تتكلم العربية كالروم والفرس والحيش ... وأوصى بقوله: «اطلبوا العلم ولو في الصين.»^٦ أليس كذلك يا ربي؟

ولكن التفريق والتعصب والكراهية ربما كان المسئول عنها الحكّام وأتباعهم من بعض رجال الدين المتعصبين ... سامحهم الله ...

^٥ حديث «إنك لا تفضلهم إلا بالتقوى» أورده الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (سورة الحجرات الآية: ١٣). قال نزلت الآية في أبي هند ذكره أبو داود في المراسيل: حدّثنا عمرو بن عثمان وكثير بن عبيد قالا حدّثنا بقية ابن الوليد، قال حدّثني الزهري قال: أمر رسول الله ﷺ بني بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم، فقالوا لرسول الله ﷺ: نزوج بناتنا موالينا؟! فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا...﴾. قال الزهري: نزلت في أبي هند خاصة، وقيل: إنّها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وقوله في الرجل الذي لم يتفسح له: ابن فلانة، فقال النبي ﷺ: «مَنْ الذَاكِرُ فِلَانَةَ؟» قال ثابت: أنا يا رسول الله، قال النبي ﷺ: «انظر في وجوه القوم» فنظر، فقال: ما رأيت؟ قال: رأيت أبيض وأسود وأحمر، فقال: «فإنك لا تفضلهم إلا بالتقوى.» ا. هـ.

– كذلك أخرجه الحافظ ابن كثير: قال الإمام أحمد حدّثنا وكيع عن أبي هلال عن بكر عن أبي ذر رضي الله عنه قال إنّ النبي ﷺ قال له: «انظر فإنك لست بخيرٍ من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله» تفرد به أحمد رحمه الله.

^٦ حديث: «اطلبوا العلم ولو في الصين.»

- أورده الإمام الغزالي في كتاب العلم من إحياء علوم الدين.
- وقال العراقي أخرجه ابن عدي في الكامل والبيهقي في الشعب.
- وأخرجه ابن عبد البر في العلم من رواية أبي عاتكة.
- وأخرجه ابن عبد البر أيضًا من رواية الزهري عن أنس.
- وأخرجه ابن عدي أيضًا من رواية الفضل بن موسى عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رفعه، ثم قال هذا من وضع الجوبباري لابن كرام باطل بهذا الإسناد. ا. هـ.
- قال السيد مرتضى الزبيدي: وحديث أنس أيضًا أخرجه الخطيب في «الرحلة» والديلمي في «مسند الفردوس» وزادا كالبيهقي وابن عبد البر بآخره: «فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم.»

الحديث الثاني

لي سؤال يا ربي الكريم ... وقد يبدو كأنه اعتراض ... وأعوذ بالله ... أعوذ بك أن أعترض على حكمتك ... فإنَّ حكمتك هي الكلمة التي أجد فيها الراحة والحماية إذا أصابني عذاب أو ألم شديد ... فعندما فقدتُ ابني الوحيد وأنا في شيخوختي ... وسرتُ ... في جنازته ... لاحظت من يسير خلفي ويحمل كرسيًّا ... فقد اعتقد بعض المُشيعين أنَّ شيئًا ضعيفًا مثلي لن يقوى على احتمال صدمة موت وحيده الشاب، وقد يسقط على الأرض في أي لحظة ... وأنا نفسي لا أعرف كيف صبرتني يا ربي ووضعت في نفسي وجسمي القدرة على مواصلة السير حتَّى المقبرة، ولكنِّي أذكر أنَّها كلمة واحدة كنت أردُّها: «حكمتك أنت يا ربي» ... نعم حتَّى الآن فيما يُصيبني من ألم ليس لي من دواء إلاَّ هذه الكلمة: حكمتك ... لأنِّي أومن اليوم إيمانًا راسخًا أنَّ كل ما يُصيبني هو «حكمة» من لدنك، وعندئذٍ أرتاح ... وأعفي نفسي من أي تساؤلات أو تعليقات ... إنَّها حكمتك وكفى ... لأنَّك لا تُقدِّر شيئًا ولا تقضي قضاء إلاَّ وفيه حكمة ... وكيف نرقى نحن البشر إلى إدراك قضائك وقدرك؟! حقًا يا ربي ... الإيمان بك راحة ... ومن صفاتك التي تمنحني أكبر قدر من الراحة صفتان: الحكمة والرحمة ... أمَّا حكمتك فتنفعني للتسليم بقضائك، وأمَّا الرحمة فتنفعني باللطف فيه ... وأنا دائمًا أردُّ هذه العبارة: «اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه.»

وإنَّك تعرف مقدار شكري لك وحمدي ... فقد كنتَ معي لطيفًا رحيماً ... ولكن العقل، العقل يا ربي ... بقدر ما أعطيتني الإيمان راحة، أعطيتني العقل جهدًا! وهذا الجهد يأتي من حركة العقل ... هذا المولّد الكهربائي للأفكار ... وتيار الأفكار إمَّا أن يُنتج، وإمَّا أن يصعق ... ولذلك له نتائج نتحمَّل نحن مسؤوليتها ... فيها سعادتنا وفيها شقاؤنا ... وعلاقته بالدين خطيرة ... فالدين عقيدة ثابتة ... والعقل أفكار مُتحرّكة ... وهذه الأفكار تُلازمها أدوات التحليل ... وهذا التحليل إذا مسَّ العقيدة الدينية فتتَّ أجزاءها، فاهتزَّت وزهد ثباتها، وأصبحت ككل وجود عقلي يتعرَّض للمطالبة بالدليل والبرهان ...

وقال أيضًا: وقد روى هذا الحديث عن أبي عاتكة ستة: محمد بن غالب التميمي وجعفر بن هاشم والحسن بن علي بن عبّاد وأبو بكر الأعمى والعبّاس بن طالب والحسن بن عطية، وقد خرج الخطيب في الرحلة من طرق هؤلاء، وكذا البيهقي والديلمي وابن عدي والعقيلي وتمام.

- وأورده الإمام القرطبي في كتابه «جامع بيان العلم وفضله» وخرَّجه تخريجًا وافياً.

وعندئذٍ يظهر الشك ... لأنَّ كل مطالبة بدليلٍ أو إثباتٍ معناها أنَّ هنالك شكًّا ... أعوذ بك يا ربي من الشك في الدين ...

ولكن الشك أنواع

هناك الشك المغتفر ... الذي قال فيه إبراهيم:

﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠).^٧

وهناك الشك الآثم للإنكار والإلحاد ...

ثمَّ شك يتبخر بالإيمان ...

مثل شك عمر بن الخطاب ساعة أن علم بالإسراء وأنك يا ربي أسريت بعبدك ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والمسافة بينهما لا يُمكن أن تُقطع في ليلة ... ورفض عقله أن يُصدِّق ما حدث ... وكاد أن ينضم إلى الذين كذبوا وشنعوا، وقد علم أبو بكر الصديق بما كان من عمر فأكد له أنَّ الإسراء حدث فعلاً ... ووقع عمر في الشك لحظة قبل أن ينتهي إلى الإيمان ...

وما حدث لعمر قد حدث لي أنا أيضاً في مرحلة من حياتي نشط فيها العقل ونهض يُؤدِّي عمله وهو عدم قبوله ما لا ينطبق عليه منطقته وقوانينه ... إلى أن انتهيت إلى الإيمان المستقل عن القدرة البشرية والمتصل بالقدرة الإلهية ...

وعقلي الآن يا ربي حدث له العجب؛ أصبح يسير اليوم مع الإيمان في طريق واحد ... فقد تقدّم العلم العقلي حتّى استطاع الكشف عن بعض قوانين خلقك المعجزة التي كانت مجهولة من قبل ... فأمن كثير من العلماء اليوم بك وبقدرتك وعظمتك ... وأصبح لهم الفضل في تقريبي إليك بالطريق العلمي مع الطريق اللغوي الذي كان كل وسيلتنا إلى معرفتك في تلك المرحلة من مراحل المعرفة البشرية، حيث لم تشأ حكمتك دخول البشر في مرحلة العلم الوضعي والتجريبي وقتذاك.

وإنه ل يبدو لي الآن أنَّ الطريق إليك في المستقبل سوف يكون كذلك طريق العلم، العملي والتجريبي؛ لأنَّ اكتشاف المجرات التي تبعد عنّا آلاف السنين الضوئية، لم يدركه

^٧ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة البقرة الآية: ٢٦٠).

علماء البشر إلاً أخيراً بآلات الرؤيا الحديثة ... ولا يُمكن لأي لغة أن تُصوّر لنا ذلك ... والله العظيم هو خالق هذه المجرات، والعلم هو الوسيلة الوحيدة لإدراك ما خلق من هذه المجرات الضوئية ... والله وحده هو الذي يُسخر لنا وسيلة العلم لنذكر عظمته؛ فكيف لا نسعى بمشيئته إلى العلم في زماننا وكل زمانٍ ومكانٍ ... ويصدق بذلك ما جاء في القرآن:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (سورة فاطر: من الآية ٢٨).

ولذلك عندي الآن اقتراح:

هو أن يُنشأ قسم أعلى مستقل في جامعة الأزهر، يُختار له ما لا يزيد على خمسين عالماً من المتفوقين في الرياضيات العليا من فيزياء وكيمياء وفلك وغير ذلك (وقد سبق أن حدث هذا قبل ذلك في ماضي الأزهر) مع التعمُّق في فلسفة الأديان، ويُرسَلون للعمل فترة في معامل العالم المتخصصة إلى جانب كبار العلماء المتخصصين في العلوم الكبرى، ثمَّ يعودون لينقطعوا للبحوث العميقة في العلم والدين طول حياتهم بمرتبات تكون أكبر مرتبات الدولة، ويُخصَّص لهم من المعامل العلمية والمراصد الفلكية ودور العبادة والمسكن من أحدث طراز ... وبهذا نضع القاعدة المتينة للفلسفة العربية الإسلامية القائمة على العالمين: الدنيا والآخرة في أرقى مظاهرها وخصائصهما ... وبذلك يظفر العالم العربي مهبط الأديان ببركتك يا ربي خالق الكون ... ويُصبح المسلمون جديرين بالإسلام ... وقد قال ﷺ: «لا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله، ولا للعالم أن يسكت على علمه»،^٨ ولكن بعض الكُسالى من رجال الدين يسكتون على جهلهم بما حدث للعلم البشري من تقدُّم، وأظهروا الإسلام كأنه غير صالح إلاً لزمان واحد هو الزمن القديم وحده ... مع أنه صالح لكل زمان ومكان، بمتابعة العلم في تجدُّده.

والمُتأمل للإسلام اليوم يجده أرقى من المسلمين ... والقرآن لا يفهمون ما فيه ولا يعرفونه إلاً كصوتٍ جميلٍ من القارئين، ورسول الله صلوات الله عليه هو القائل: «وهل

^٨ حديث «لا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه»:

- أورده الإمام الغزالي من كتاب الإحياء.
- أورده صاحب القوت، فقال: وكذلك رُويًا عن رسول الله «لا ينبغي للجاهل أن يستقر على جهله ولا ينبغي للعالم أن يسكت على علمه». وقد قال الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة النحل: من الآية ٤٣).

(انظر بقية تخريجه في الإحياء).

ينفع القرآن إلا بالعلم!»^٩ ففهموا عكس حكمتك يا ربي من أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، فقد فهموا أن معنى ذلك هو الوقوف بالإسلام عند مرحلته الأولى ... وفَسَّرُوا العلم بأنه العلم في عصر النبوة فقط ... فأثبتوا بذلك أنه صالح فقط لزمان واحد ... في حين أن ما قصدته أنت يا خالق الكون هو أن الإسلام دين البشر كافة، صالح للتحرك في كل زمان ومكان، كتحرك النجوم في السماء، وتحرك الإنسانية نفسها من درجة الجهل إلى درجة العلم ... ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩)، ﴿وَاللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).^{١١}

وعلى رجال الدين أن يفهموا المسلمين أن صلاح الإسلام ليس في التجمُّد في زمن واحد مضى، بل في الحركة المتقدمة مع تنقية ما يفسد ويتعثر بالحركة الطائشة. أخيراً يا ربي، أتنبأ للمسلمين إذا لم يُغيروا ما بأنفسهم، فإنك كما نقلت المسيحية إلى روما سوف تنقل الإسلام الراقي إلى حيث الرقي والعلماء الذين ورد ذكرهم في قرآنك بقولك: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (سورة فاطر: من الآية ٢٨).

^٩ تمام حديث «وهل ينفع القرآن إلا بالعلم؟!»

أورده الإمام الغزالي في كتاب العلم من إحياء علوم الدين قال: «وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه: حضور مجلس عالم أفضل من صلاة ألف ركعة، وعبادة ألف مريض، وشهود ألف جنازة، فقيل يا رسول الله ومن قراءة القرآن؟ فقال رسول الله ﷺ: وهل ينفع القرآن إلا بالعلم؟!» وذكر السيد مرتضى في تحريجه: أن ابن الجوزي ذكره في الموضوعات، وإن كان السيد مرتضى الزبيدي قد وجد لهذا الحديث طريقاً آخر أخرجه ابن ماجه كما في الذيل للسيوطي والحاكم في تاريخه، كما في الجامع الكبير له في مسند أبي ذر ولفظه: «يا أبا ذر لأن تغدو في أن تتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تُصلي مائة ركعة، وأن تغدو فتتعلم باباً من العلم عمل به أو لم يعمل به خير من أن تصلي ألف ركعة تطوعاً ...»

^{١٠} ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الزمر: من الآية ٩).

^{١١} ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (سورة الرعد الآية: ١١).

الحديث الثالث

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾

(قرآن كريم)

متعني الوحيدة الآن يا ربي هي الحديث إليك ... ولكنك تجعلني أسترسل مهتدياً بإرادتك ... وكان حديثك في قرآنك، الذي كنت تُخاطب فيه رسولك والناس، قد أسهبت فيه بالنصح والتنبيه والإيضاح كي تُنير السبيل لدينك الجديد ... وقد اخترت للدين الجديد أمة سبق أن أنزلت فيها دينين كبيرين؛ هما اليهودية والمسيحية، فلم يتبعهما أكثر هذه الأمة الموعلة في البداوة ... حتى الحضارة المجاورة لهذه الأمة مثل حضارة الروم، وحضارة الفرس لم تنتفع بهما هذه الأمة قبل الإسلام، هذا الدين الجديد الذي خلق منها خير أمة أخرجت للناس ... ولكن رسولك بهذا الدين لقي عنتاً وجهداً في إدخال هذا الدين في قلوب أولئك الأجلاف وعقولهم ... ولكنها قدرتك ومعجزتك يا ربي أن تختار ديناً راقياً كالإسلام لينزل في صحراء قاحلة وقوم بدائيين ... وكان لا بُدَّ لحكمتك من أن تُخاطبهم أحياناً على قدر عقولهم ... وكان أرقى ما اشتغلوا به وقتئذٍ هي التجارة، فاستخدمت في جذبهم إلى دينك الجديد عبارات مغرية لهم مثل: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ (الأنعام: ١٦٠)¹ و﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ (التغابن: ١٧)² ممّا عجبت له

¹ ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (سورة الأنعام الآية: ١٦٠).

² ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ (سورة التغابن: من الآية ١٧).

أول الأمر ... لأنني لم أقرض ولم أقترض سوى مرة واحدة ... فقد أقرضت ذات يوم بعيد مبلغ مائة جنيه لصديق طلبها مني (وكان من أهل الثقة والصلاح، ومات شهيداً بعد أن أصبح قُطباً دينياً) واطمأن قلبي إلى أن نقودي في أمان، وسُردُّ إليَّ في القريب ... ولكنّه رجع ليخبرني بالخبر السوء: وهو أن مالي الذي أقرضته إيّاه قد نُشِل منه ... فأيقنت أن المبلغ الذي أقرضته لوجه الله، لوجهك أنت يا ربي، قد ضاع إلى غير رجعة ... وإن كان في الحقيقة اتضح لي أنه لم يضع، لقد رجع مضاعفاً من حيث لا أدري ولا أنتظر ... وقد كنت نسيت ذلك ...

نعم ... نحن البشر نتذكّر الخسارة وننسى المكسب ... ونسيت أيضاً ما جاء في القرآن: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ١١) ^٢ ... «صدق الله العظيم» ... أمّا هذه فنعم ... ولا أنسى يوم ماتت زوجتي ولم يكن معي - بالمصادفة - نقود ... فجاءني ناشر كتبي، ولم يكن عندي كتب للنشر، فدسّ في يدي خمسمائة جنيه وانصرف في صمتٍ لتشجيع الجنازة ... فأدركت يا ربي الكريم أنك أنت الذي أرسلته ...

وغير ذلك كثير ... وأفضالك كثيرة ... وتمنحني ما لم أطلب من التكريم الأدبي والرسمي، ولا أظن أن القلاذتين الأسمى في الدولة: «الجمهورية» و«النيل» قد مُنحتا لشخصٍ واحدٍ ... والأخيرة دُعيت ولم أذهب لتسلّمها حتّى الآن ... لأنني لم أفعل شيئاً أستحقها عليه سوى كُتُب لا تنفع ولا تضر ... ولكنّه فضلك أنت وكرمك ... ثمّ حُبك لمخلوق مثلي، ليس عندك أكثر من حشرة ...

هذا صحيح ... فقد كنت يوماً أنظر في ورقة بيضاء لأكتب عليها الهراء الذي أكتبه، فرأيت نقطة سوداء دقيقة وضئيلة، أضال من أي نقطة حبر، فحسبت أن هذه النقطة قد سقطت من قلمي على الورقة ... ولكنني رأيتها تتحرّك، فدهشت وكذّبت نظري، وأمعنت النظر فإذا هي تسير فعلاً، ولكن، كيف تسير هكذا؟ ما هذه السرعة؟ وحسبت في نفسي هذه السرعة بالنسبة إلى حجمها الذي لا يكاد يُرى بالعين المجردة، وقارنت بين حجمها وحجمي فاتضح لي أنه لو كانت لي سرعتها لكنت أسير في الطرقات بسرعة الطائرة النفاثة! ما هذه القوة الجبّارة التي وضعتها بقدرتك في هذا المخلوق الضئيل! وكم من المولودات الكهربائية يلزمني أنا الإنسان لأسير بسرعة هذه النملة؟ ثمّ النحل، كيف تستطيع النحلة

^٢ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (سورة الضحى الآية: ١١).

أن تصنع بغير أدوات من خارج جسمها هذه الأشكال الهندسية الرائعة في تكويناتها السداسية وتملؤها بالعسل؟! ثم ... ثم ... ثم ... هناك ما لا يُحصى من عجائب خلقك! أيها الخالق الأعظم: أين امتياز الإنسان إذن؟ ... أفي معرفته لك وشعوره بك؟ ومَن أدرانا نحن البشر أن النمل لا يعرف ولا يشعر؟ لقد صادفتُ مرة جماعة من النمل تسير على الأرض في اتجاه مُعيّن، فوضعت قدمي أمامها أسدُ طريقها، فرأيتها تتوقّف عن السير وكأنّها تُفكّر في أمر هذه العقبة التي اعترضتها ... ثمّ دارت حول قدمي، واجتازت العقبة ثمّ استأنفت السير ... إذن هي تشعر وتُفكّر ... تشعر بالمشكلة وتُفكّر في الحل ... فكيف لا تشعر بوجودك يا ربي؟! كل الموجودات يا ربي تشعر بك ... وكل المخلوقات تُسبّح بحمدك، كُلُّ بطريقته ولغته، كما جاء في التسبيح في سورة الإسراء: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: ٤٤).^٤ صدقت يا ربي العظيم ... وكل ما يصدر عن مخلوق من حركة ومن صوت هو علامة حياة ... الحياة نفسها رمز تسبيح ... حتّى الإنسان له من الحركات والأصوات ما هو تسبيح كبقية المخلوقات، ونُسَمِّيهِ نحن عبادات، ونُطلق فيه من الألفاظ والعبارات، ما عَبَّرَ عن رنينه واستغنت عن مظاهره المخلوقات الأخرى، التي تُعَبِّرُ عن فرحتها بالحياة وحدها الله للوجود بطريقة تلقائية ... بينما نحن نستخدم التعبيرات اللغوية في شكل تواسيح وابتهالات ...

وإنّي لأسألك يا ربي: ونحن البشر لا نختلف كثيراً عن بقية مخلوقاتك، ويسري علينا أسلوب الحياة طبقاً لقوانينك، وقوانينك هي من معجزاتك، ومن البشر جهلاء عجزة عن فهم ذلك؛ رأوا المعجزة في الاستثناء والخروج على هذه القوانين ... وأنت خلقت لكل قانون استثناء من القانون، فإذا هو قانون آخر بدأ العلماء اليوم يُدركونه ممّن ذكرتهم يا ربي في قرآنك ... فإرادتك ذاتها قانون، وقولك: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢)^٥ مجرد الكينونة: قانون، فأنت لا تكسر ولا تخرق قانوناً لك، فيُسمّى عند البشر معجزة فهذه كلمة من صنع البشر ممّا يستحيل عليهم الإتيان به. أمّا عندك فلا معجزة، إنّما الإرادة هي ما يصح أن يُنسب إليك ... إرادتك هي كل شيء ... أين إذن امتيازنا؟ أهو في غرورنا الذي انفردنا به عن كل مخلوقاتك؟

^٤ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ (سورة الإسراء من الآية: ٤٤).

^٥ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (سورة يس الآية: ٨٢).

كل مخلوقاتك يا ربّ وضعتَ فيها نوعًا من العقل يُفكّر ليُحافظ على وجوده ... فإذا كان هناك امتياز لنا فهو في أسئلتنا ...
منذ الطفولة حتّى النهاية.
أقصد يا ربي الأسئلة للإجابة.
الطموح إلى المعرفة ...
لكنك القائل:

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٣٥).^٦

– لماذا يا ربي؟ ربما كان ذلك رحمةً بنا؟ هل الغلو في العلم أكثر ممّا ينبغي مدمر لحياتنا؟

أنت أدرى بحكمتك يا خالقنا العظيم ...
كل ما أسألك من نعمة هي حكمتك ورحمتك ...

لا أسألك متعة من متع الدنيا!
أعطيتني القناعة والاعتدال، فلم أشعر بحرمان.
وفي الآخرة ...
لا أتطلّع إلى الجنة؛ لأنّها جزاء للمتقين، وأنا لا أريد جزاء ومكافأة على حبك وتقواك ...
والنار ...

لن تجعلها تمسني، فهناك رحمتك ...
وأنا واثق بمغفرتك، وغير واثق بعدم ارتكابي للمعاصي، فأنا لم أرتكب كبائر، ولكني مُرتكب لكثيرٍ من الصغائر، وأكثر ما اقترفت من الشر هو بالنية دون الفعل ... أمّا الخير فلا أذكر أنّي أدّيته لا بالنية ولا بالفعل ... لا أذكر لي خيرًا، أمّا العقاب فهذا قضاؤك، وعندئذٍ أقول: «ربي لا أسألك ردّ القضاء، ولكن أسألك اللطف فيه» ... وأنت الله سبحانه وتعالى اللطيف الرحيم ... ودينك دين اللطف والرحمة ... والواجب الأسمى لرجال دينك أن يغرسوا في قلوب الناس رحمتك ولطفك ... وأنّ الحب لك وليس فقط الخوف منك هو المدخل لرضاك، ولكن أكثرهم يُغالون في تصوير ما يُخيفنا منك أكثر من تصوير ما يُحبّبنا

^٦ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة الإسراء الآية: ٨٥).

فيك، فأقاموا الإسلام على الخوف أكثر ممَّا أقاموه على الحب ... وما هذا هو الذي قصدته أنت ... ولا ما عمل من أجله رسولك ﷺ بقولك على لسانه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦) ...^٧ والإكراه والكره لا يُمكن أن يكونا أساسًا صادقًا للحب والمعرفة ...

لقد بلغ الرسول بما يجعل المسلمين خير أمة أخرجت للناس ... لكن للأسف ... إنَّ الإسلام أرقى من المسلمين ... والمسلمون اليوم بعيدون عن قول نبيهم صلوات الله عليه: «تَفَكَّرُ ساعة خير من عبادة سنة»^٨ و«لا عبادة كتفكُّر»^٩ لأنَّ الأذن عندهم أقوى من العقل، ولم يعرفوا قول الإمام الغزالي^{١٠} في فضل العلوم العقلية على اللغوية: «إذ تدرك، كما قال، الحكمة بالعقل واللغة بالسمع، والعقل أشرف من السمع.»

^٧ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة الآية: ٢٥٦).

^٨ حديث: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة.»

– أورده الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (سورة آل عمران من الآية: ١٩١). وأورده الإمام الغزالي في الإحياء بلفظ «كلمة من الحكمة يسمعها المؤمن فيعمل بها ويعلمها خير له من عبادة سنة صيام نهارها وقيام ليلها» قال الحافظ العراقي: رواه الديلمي في مسند الفردوس من رواية محمد بن محمد بن علي بن الأشعث: حدَّثنا شريح بن عبد الكريم التميمي، حدَّثنا أبو الفضل جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، حدَّثنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعي عن حسان بن عطية عن محمد بن أبي عائشة عن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه فذكره دون قول فيعمل بها ويعلمها ...

وقال السيد مرتضى في تخريجه: رواه الديلمي أيضًا عن أبي هريرة: «كلمة يسمعها الرجل خير له من عبادة سنة والجلوس عند مذاكرة العلم خير من عتق رقبة.»

^٩ حديث «لا عبادة كتفكُّر»: أورده الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الآية ١٩١ آل عمران.

^{١٠} حُجَّة الإسلام أبو حامد محمد الغزالي (٤٥١-٥٠٥هـ/١٠٥٨-١١١١م):

صار إمام الحرمين وانتشر ذكره في الآفاق، وقام بالتدريس في المدرسة النظامية في بغداد، ثمَّ حج وترك الدنيا، واختار الزهد والعبادة، وبالغ في تهذيب الأخلاق، ودخل بلاد الشام، وصنَّف كتبًا كثيرة أشهرها: إحياء علوم الدين، جعله على أربعة أرباع: ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات. ثمَّ عاد إلى خراسان مواظبًا على العبادات إلى أن انتقل إلى جوار ربه سنة ٥٠٥هـ/١١١١م بمدينة طوس بخراسان عن ٥٤ عامًا، له في التوحيد كتاب «المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة

ولذلك يا ربي العزيز تخلّف المسلمون على وجه الأرض؛ لأنّهم لا يفكّرون ... ولا حتّى في قمة الإيمان؛ لأنّ الإيمان ... هو الذي أنقذ عمر بن الخطاب من شكّه في الإسراء.
وتعليق على الغزالي في فضل العلم العقلي أنّ معرفة الله تعالى لا يمكن أن تتم بالعلم فقط؛ لأنّ الله قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥) ... فلا يمكن إذن إدراك الله بالعلم فقط إلّا إذا أدخلنا الله في باب القليل الذي أوتيّه الإنسان ... وهو تعالى الأكبر ... وهو بكمبره وعظمته لا يحشر في عقلنا البشري الصغير القليل ...
ولكن فلنصبر ... يوجد ليل ونهار في حياة الأمم، هذا قانونك ... وأنا بإرادتك اشتغلت بالقانون ... وكذلك أبي ... لقد اشتغلت بكل شيء ... بلا موهبة ... ولكنّي كثير الأسئلة ... دون أن أظفر بإجابة ...

وممن أنتظر الإجابة؟

منك طبعًا ...

إنّي أحبك، ومعنى حبي لك: معرفتك ...

إنك اصطفت محمدًا وأردته بشرًا، ولم تمنحه من معرفتك إلّا القدر الذي يحتمله البشر ... ويوم سأله قومه عن الرّوح لم تكشف له عن سرّها، وأوحيت إليه: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة الإسراء: من الآية ٨٥).

نعم ... نعم ... المعرفة ...

ولكن ماذا أفعل بالمعرفة؟

لست أدري ... أريدها ...

الناس تريد الجنة ... ويعبدون الله من أجلها! ...

أمّا أنا لست أطلبها ... وهذا شقائي ...

المحال، نعم أحب المطلق ...

أحب من لا يمكن أن تحبني ...

في شبابي نظرت إلى امرأة أحبها ... فرأيتها تنظر إليّ طويلاً، وتهمس كلمة واحدة:

«مستحيل» ...

والجلال»، وله «مقاصد الفلاسفة»، وله أيضًا «تهافت الفلاسفة»، وله كتاب «مكاشفة القلوب»، وله أيضًا «منهاج العابدين» ويسميه أهل السنّة بحجّة الإسلام.

ولكنِّي أحب الجمال ... وأنت أيضًا يا ربي ... وقد علّمتنا ذلك ... وقد قالها عنك رسولك: «إنَّ الله جميل يحب الجمال» ... وقالتها عائشة فيما رُوِيَ عنها: ١١ «كان نفر من أصحاب رسول الله ينتظرونه على الباب فخرج يريدهم وفي الدار ركوة فيها ماء، فجعل ينظر في الماء ويُسوي لحيته وشعره، فقلت: يا رسول الله، وأنت تفعل هذا! قال: نعم إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليُهيئ من نفسه، فإنَّ الله جميل يُحب الجمال».

كما جاء في أحد الأحاديث: كان رسول الله يسافر بالمشط والمرآة والدهن والسواك والكحل ... ١٢

وأنت القائل يا ربي: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤). ١٣
 إنَّ الجمال فعلاً من أروع مخلوقاتك يا ربي العظيم ... جعلته في الإنسان والحيوان والطبيعة ... وجعلته من الروعة بحيث أُوحيَت إلى شاعر قال يصفه: «إنَّ الجمال ليس إلَّا أول درجات الهول» ... إنَّه شاعر ألماني ١٤ من عبادك المسيحيين المتصوِّفين فيما يبدو ...

١١ حديث «... إنَّ الله جميل يحب الجمال ...»: أورده الإمام القرطبي قال: روى مكحول عن عائشة قالت: «كان نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه على الباب فخرج يريدهم، وفي الدار ركوة فيها ماء فجعل ينظر في الماء ويُسوي لحيته وشعره، فقلت يا رسول الله وأنت تفعل هذا؟ قال: نعم إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليُهيئ من نفسه، فإنَّ الله جميل يُحب الجمال» [٢٧٦، مختار تفسير القرطبي] في تفسير سورة الأعراف.

١٢ حديث «كان رسول الله يُسافر بالمشط والمرآة والدهن والسواك والكحل»:

- أورده البيهقي في السُنن.
- أورده الإمام القرطبي قال: روى محمد بن سعد أخبرنا الفضل ابن دكين قال: حدَّثنا منعل عن ثور عن خالد بن معدان قال: «... الحديث».
- ذكره الإمام الطبراني في الأوسط.
- وأورده الإمام الغزالي في آداب المسافر وزاد في رواية أخرى ستة أشياء: «المرآة والقارورة والمقراض والسواك والمشط».

١٣ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (سورة التين الآية: ٤).

١٤ الشاعر الألماني هو: رينر ماريا ريلكه (١٨٧٥-١٩٢٦م).

شاعر فيلسوف وُلِدَ في «براغ» من أصل نمساوي، وهب نفسه للفن، وجاب أنحاء النمسا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا، وكانت رحلته إلى روسيا دافعاً قوياً لنزعة الصوفية. ثمَّ جاءت صداقته وملازمته للمثال «أوجست رودان» (١٨٤٠-١٩١٧م) تصقل مواهبه وتضيف عمقاً إلى نظريته الفنية وفلسفته. وقد

قرأت له في شبابي أيام كنت أهيم حُبًّا بالفن الذي وجَّهتني أنتِ إليه، رحمة منك بي وكرمًا، فكلما انصرفت عني المرأة صرفت عني حُبِّها إلى حب الفن ... وجعلت من المرأة، حتَّى وأنا أكرهها، خادمة لإلهامي الفني.

ولعل ذلك الشاعر الألماني الذي ذكرته كان واقعًا في الحب، ومات أيضًا بسبب الحب ... موتة جديرة بشاعر! ... أراد أن يُقدِّم إلى محبوبته وردة، فاقتطفها من شجرة، فوخزه شوكرها وسال الدم من أصبعه ... وتسمَّم الجرح فمات ... وهذه هي قصيدته:

«إذا صحتُ،

فمن ذا الذي يسمعي من بين طبقات الملائكة؟

وحتَّى لو سمعني أحدُهم،

وشاء أن يضمَّنني إلى صدره،

لسقطتُ في الحال ميتًا؛

من فرط سمو شخصيته وصدمة روعته.

إنَّ الجمال ليس إلَّا أول درجات الهول،

ونحن معشر البشر لا نكاد نحتمله.

وإذا كنَّا نعجب به هذا الإعجاب،

فلأنَّه يزدري أن يعني بتحطيمنا،

أو إلحاق الأذى بنا.

إنَّ كل ملاكٍ مخيف رهيب!»

وجاء في كتابي «أرني الله» عام ١٩٥٣م أنَّ رجلًا ذهب إلى ناسك من رجال الدين وقال له: «أريد أن أرى الله! فأجابه: إنَّ الله لا يُرى بحواسنا الجسدية ... ولكنَّه يتكشَّف لروحك إذا ظفرت بحبه ... فسأل الرجل: كم مثلًا؟ ... فقال الناسك: حذار الطمع، مستحيل لبشر أن يطيق مثقال ذرة من حبه تعالى، ولكنِّي أسأل الله لك ربع ذرة من حبه. واستجاب الله ... وإذا الرجل يفقد عقله من قوة نور الله، وحاول الناس أن يكلموه فلم يسمع ... فقال

كتب كتابًا عن «رودان» بعد وفاته، وله محاولة وحيدة في القصة وأخيرًا أشعاره الرائعة التي تُرجمت لأكثر من سبع لغات تحت عنوان «دونيزير إيليجيان» وتُوفِّي في سويسرا مُخلَّفًا فنًّا خالدًا، ويُعدُّ من أبرز شعراء ألمانيا في العصر الحديث.

الحديث الثالث

الناسك للناس: لا جدوى ... كيف يسمع كلام الأدميين مَنْ كان في قلبه ربع ذرة من حب الله ... والله لو نشرتموه بالمنشار لما علم بذلك.»
إنَّ ربع ذرة من نور الله تكفي لتحطيم تركيبنا الأدمي وإتلاف جهازنا العقلي!

الحديث الرابع

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾.

(قرآن كريم)

ألهمني الصواب يا ربي ... فأنا أخشى أن أكون مخطئاً في حديثي إليك ...
فلقد أنشأت في هذا الحديث علاقة بذاتك العلية، ليست ممّا يستسيغه الناس بين
الخالق والمخلوق، ولم يفهموا أنّها مجرد مناجاة من مخلوق لخالقه ... مناجاة حب علوي
... ليس ممّا يفهم أو يؤخذ بالمدلول من أنّه تناول على الذات الإلهية؛ وهو ما لا يمكن أن
يخطر على بال أي مؤمن بالله ورسوله ...
وحسبي الله ونعم الوكيل فيمن فهمني خطأ ورماني بالضلال، دون أن ينتظر حسابك
يا ربي يوم الحساب ...
ومع ذلك ألتمس منك المغفرة لمن ظلمني، ولي إذا كنت سهوت أو أخطأت، وأنت
الغفور الرحيم ...
وأنتهز الفرصة لأشكر الأزهر الشريف على دعوتي لحضور الاحتفال بعيدة الألفي،
ممّا أشعرنى بأنّه لا يراني من الضالين.
وأنا لإدراكي أنّك تعالي ليس كمثلك شيء، ولا أرى أي وصف مناسب لعظمتك وارتفاعك
... فقدرتك التي خلقت من الكائنات ما لا يمكن لعقلنا البشري أن يحيط بحجمه، تجعلني
بالنسبة إليك أضال بكثير الكثير من أضال حشرة ... ولكن حرصك على وجودنا وحبك لنا
باعتبارنا من موجوداتك هو الذي أشعرنا بأهميتنا لك، وأنك وجّهت الأمر إلينا لنعبدك،
في حين أنّنا في إحساسي بك ونظري أنا مجرد ذرات غبار ... غبار بشري ... وتلك الذرات
من الغبار البشري هائمة في ملكوتك ... وعندما شاء كرمك أن يرفع من شأن ذرات الغبار

البشري فيتكئل ويتجمّع كالغبار الكوني ويصبح نجومًا تدور في أفلاك كينونتك، تمّت إرادتك، وتكوّنت مجموعات البشر ... وأردت تنظيمها وضبط مساراتها، فأرسلت إليها الرُّسل ... فأدركت ذاتها، وضخمت من هذا الإدراك للذات ... ثمّ أدركت وجودك على نحو صغّر شكك وضغط حجمك لتحشره في مفهومها الضيق: هذا المفهوم المحدود الذي جعل الخالق غير المحدود هو الذي يسأل المخلوق العبادة والحمد والتعظيم ... رغم أنّك قلت في قرآنك ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥).^١ وفَسّر ذلك المفسرون العارفون: «الله الغني عن خلقه وعن عبادتهم، وإنّما أمرهم لينفعمهم» ... وهذا في الحق الغرض الحقيقي من عبادة الله ... إنّها ليست لتعظيم الله (لذاته تعالى) فهو غنيٌّ عن كل تعظيم ... والبشر الذي يزعم ذلك لا يقدر الخالق قدره ... إنّما العبادة لمنفعة العابد، ومنفعة العابد في تعلّمه من الله كيف يُحافظ على بقائه ... وبقاؤه داخل في نظام الكون ... ونظام الكون بيد الخالق الأعظم ... ولذلك أعطى الخالق كل مخلوق قدرًا من الإدراك للمحافظة على بقاء النظام الكوني كما خلقه الله تعالى ...

سبحانك ربي.

في شبابي ... كنت كثير الإقامة في مسجد السيدة زينب ... أصلي وأطلب معاونتك لي في الدراسة، وفي كل شئوني ... إنّني لا أكتمك شيئًا ... وحدث أيضًا في هذا المسجد أنّي قمت بالتمثيل ... إني والله ... مرة واحدة ... كنّا في سنة ١٩١٩ م ... وكنا نحن الشباب ننوي القيام بمظاهرة ضد الإنجليز ... ولاحظنا أنّ بعضًا من زملائنا بهم بالتسلُّ لعدم الاشتراك في المظاهرة، فجمعناهم في المسجد وأغلقتنا علينا إلى حين موعد المظاهرة ... وخفنا أن يتطرّق الملل إلى المنتظرين ... فاقترح أحدهم أن نشلهم بشيءٍ يلهيهم، وكانوا يعلمون أنّي من هواة فن التمثيل، فصاحوا يطلبون مني فصلًا مسرحيًا، فقامت أنا وصديق لي من الهواة ومثّلنا مسرحية «لويس الحادي عشر».^٢

^١ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (سورة فاطر الآية: ١٥).

^٢ مسرحية لويس الحادي عشر (١٨٣٢م):

تراجميا فرنسية من خمسة فصول من تأليف كازيمير دي لافيني، وتدور المسرحية في أخريات أيام لويس الحادي عشر: فيظهر الملك كاذبًا وضعيفًا وشرسًا كثير الوسوسة بين أطبائه المعالجين. وبالقرب

وقمت أنا في دور «لويس» أصيح في القائم بدور «الكونت نيمور» الثائر ضد الملك لويس ... ولويس، أي أنا، أُهدده بقولي: «إياك واللعب بالنار يا كونت» وأتوقع تصفيق الإعجاب من المشاهدين، وإذا بي أقابل بالوجوم البارد؛ والصياح يطلب فصلاً مُضحكاً، وكان لا بُدَّ من القيام بالفصل المضحك ... فقامت به ... وما كدت أنتهي حتى دوى تصفيق الاستحسان من أرجاء المسجد ... فتكدّرت كدراً شديداً ... ولعنت التمثيل والمشاهدين الذين صفقوا للهزل وتركوا الجد ... ولم أعد لها بعد ذلك ...

واندمجت في سماع التلاوة من الشيخ ندا أشهر القارئین في ذلك العهد ... خاصةً في سورة «الكهف» يوم الجمعة ... ولعلها رسبت في خاطري منذ ذلك الحين، إلى أن جسّدتها في تمثيلية بعد عشر سنوات هي «أهل الكهف».

وقد دفعتني يا ربي إلى شيءٍ آخر ... الحمد لك يا ربي ... فقد كان التمثيل وقتذاك في بدايته غير محترم ... دفعتني إلى طريق الأدب، وأدخلتني المجمع اللغوي. ولكنني أنا اعتذرت عن دخوله أول الأمر ممّا أغضب رئيسه أحمد لطفي السيد^٢ وقال: «كيف يرفض الكرسي الذي يسعى إليه كثيرون؟!» ...

منه يعيش «كومين» وابنته «ماري» التي تقع في حب «نيمور» الذي لقي أبوه وإخوته حتفهم على يد الملك منذ زمن، والذي تخفّى تحت اسم مستعار ويعمل سفيراً لأحد الدوقة. ولكن مكر الملك استطاع أن ينزع السر من ابنته، فيلقي القبض عليه ويودعه السجن، ولكن أحد أطباء الملك «كواتيه» ساعد نيمور على الهرب، ولكنّه يظل متخفياً في غرفة الملك حيث يستمع إلى اعترافاته لأحد المقرّبين للملك، وتُعدُّ هذه الاعترافات قمة المسرحية. ويتردّد نيمور في قتل الملك مُفضّلاً تركه نهياً لهواجسه وشعوره بالذنب.

وهكذا تمضي المسرحية بأسلوب كلاسيكي، في شكلٍ رائعٍ فقد جمع المُؤلّف بين فن الرومانسية والمواقف الدرامية ونقد الشخصيات وتحليل الأوضاع الاجتماعية، ولم تخلُ هذه المسرحية من الكوميديا الخفية.^٢ أحمد لطفي السيد (١٨٧٢-١٩٦٣م):

مُفكّر وفيلسوف مصري ورائد من رُواد الحركة الوطنية، وُلِدَ بالدقهلية، حصل على ليسانس الحقوق ١٨٩٤م، عمل بالقضاء، استقال من منصبه ١٩٠٥م واشتغل بالسياسة، شارك في تأسيس حزب الأمة وتولّى رئاسة تحرير الجريدة حتى ١٩١٤م، عُيِّن مديراً لدار الكتب ١٩١٥-١٩١٨م فمديراً للجامعة المصرية ١٩٢٥م، فوزيراً للمعارف ١٩٢٨م، وعاد إلى إدارة الجامعة ١٩٣٠م، ثم استقال ١٩٣٢م، وفي ١٩٣٨م عاد للمرة الثالثة مديراً للجامعة، عُيِّن عضواً بجمع اللغة العربية ١٩٤٠م، فرئيساً للمجمع ١٩٤٥-١٩٦٣م، ثم عُيِّن وزيراً للخارجية ١٩٤٦م، فنائباً لرئيس الوزراء وعضواً بمجلس الشيوخ، أسهم في عدة مجامع وجمعيات علمية، ترجم لأرسطو وجمعت خطبه ومقالاته وأحاديثه، نال جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية ١٩٥٨م.

ثمّ وضعتني أنت بإرادتك في كرسي «عبد العزيز فهمي».^٤
 وأنا في الحقيقة أحب هذا الرجل وأكرهه ... ولقد أشدت به في حفلة الاستقبال؛ لأنّه أحد الثلاثة الذين طالبوا الإنجليز باستقلال مصر: سعد زغلول، وعبد العزيز فهمي، وعلي شعراوي، وعلى أثر ذلك قامت ثورة ١٩١٩ م ... ثمّ لأنّه اتصف بالشجاعة ... ولذلك قلت في كلمة استقبالي مخاطبًا أعضاء المجمع: لقد وضعتوني مشكورين في كرسي مخيف؛ كرسي رجل من أشجع رجال مصر في التاريخ المعاصر هو: عبد العزيز فهمي ... والشجاعة عند عبد العزيز فهمي وسيلة لغاية أسمى وأشرف هي: «الحرية»، والحرية عند عبد العزيز فهمي هي حياته ... هي لحمه ودمه ... هي فكره وروحه ... هي علمه وجهاده ... طلب الحرية للوطن ... وطلب الحرية للفكر ... وطلب الحرية للغة، فلا عجب إذن إذا اعتقدت أنا أنّ هذا الكرسي الذي اقترن باسم عبد العزيز فهمي هو «رمز الحرية».
 ولكن هذا الكرسي كان قد آل إلى رجل آخر هو «واصف غالي» ...^٥

^٤ عبد العزيز فهمي «باشا» (١٨٧٠-١٩٤٨م):

سياسي مصري درس الحقوق واشتغل بالمحاماة، وبرز فيها. وهو من حزب الوفد حتّى ١٩٢١م، هو أحد الثلاثة الذين قابلوا المعتمد البريطاني في ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨م لتقديم طلبات مصر، وفي عام ١٩٢٣م أصبح عضوًا في لجنة الدستور، ثمّ وزيرًا للحقانية (العدل) ١٩٢٥م ورئيسًا لمحكمة النقض.

وبعد ذلك انتخب رئيسًا لحزب الأحرار الدستوريين خلفًا لعدلي «باشا» يكن عام ١٩٢٤م، ثمّ اعتزل السياسة لفترة من الزمن وانصرف للأدب والمحاماة، ولكنّه عاد إلى رئاسة الحزب بعد وفاة محمد محمود «باشا» عام ١٩٤١م، وانتخب في نفس العام عضوًا في الجمعية التشريعية المصرية، ثم ١٩٤٢م نقيبًا للمحامين، ثمّ رئيسًا للمجمع اللغوي حتّى وفاته عام ١٩٤٨م.
 وكان له نشاط ملحوظ وجريء في المجمع اللغوي، وهو من أنصار حرية الفكر، ودعا إلى تحرير اللغة العربية من القيود الشكلية وأعد بحثًا مطبوعًا في ذلك، وقد امتدحه معظم معاصريه من الأدباء والمفكرين والسياسيين.

^٥ ووصف «باشا» غالي:

أحد أعضاء حزب الوفد المصري الأوائل، درس القانون، وعيّن وزيرًا للخارجية، كان يُجيد الفرنسية لدرجة أنّهم دعوه في البرلمان الفرنسي لإلقاء كلمة أثناء زيارته لفرنسا وقد أشادوا ببلاغة فرنسيته. اختير ليشغل كرسي عبد العزيز فهمي في المجمع اللغوي ولكنّه اعتذر، واختير توفيق الحكيم ليشغل ذلك الكرسي خلفًا للثنتين.

الحديث الرابع

واعترُ واصف غالي لاعتقاده أنَّه بعيد عن اللغة العربية، وعن البلاد لأنَّه يُقيم في فرنسا باستمرار ... فانتُخبْتُ في كرسيه، ولَمَّا كانت استقالته قد تَمَّت قبل استقباله وإلقائه كلمة التنويه بسلفه عبد العزيز فهمي، فقد أصبح الموقف مُحيرًا وبلا سابقة، وهي حظي في الوقوع في المواقف المُحيرة دائمًا، فاستشير في هذا الموقف عضو المجمع وفاقه مصر القانوني «عبد الحميد بدوي»^٦ فأفتى بأن أُعتَبِرَ خَلْفًا لكرسي الاثنين، وأن أُضْمِنَ كلمتي تنويهاً بالاثنتين معًا ... ووصفت هذا الكرسي بأنَّه «رمز للحرية» ومضيت في كلمتي قائلاً: هذا الاعتقاد عندي، وقوَاه الرجل التالي الذي آل إليه هذا الكرسي. الرجل التالي هو: «واصف غالي» وواصف غالي هو أيضًا — ولعلها مصادفة عجيبة — رجل من رجال الحرية: جاهد هو الآخر في سبيل حرية بلاده (باعتباره من الرعيل الأول في الوفد المصري)، وحافظ ما استطاع على حرية حياته، ولئن كان قد ترك هذا الكرسي — والمجمع أحوج ما يكون إلى علمه وأدبه — فقد فعل ذلك مدفوعًا بدافع الحرية التي أحبها والتي أرادت له أن يُقيم حيث يشاء، وأن يخدم وطنه وأدب وطنه على النحو الذي يحسنه ويتفق مع مواهبه ... ولقد خدم فعلاً الأدب العربي خدمة جليلة، فهو بفضل تمكُّنه من اللغة الفرنسية أسلوبًا وصياغة قد استطاع أن يُبَصِّرَ الغربيين بما في الأدب العربي من روائع لم يفتنوا إليها، ولم يُقدِّروا قدرها. فنشر في باريس منذ سنة ١٩١٣م كُتُبًا ثلاثة، هي: «تقاليد الفتوة عند العرب» و«حديقة الأزهار» و«الدُر المنثور» ... كتب نقل بها إلى الغرب فضائل الفكر العربي نقلًا مبيِّنًا مشرفًا جعل ناقد فرنسا المشهور في ذلك الوقت «جول لومتر»^٧ يقول وهو شديد الإعجاب:

^٦ د. عبد الحميد بدوي:

مُشرِّع مصري وُلِدَ عام ١٨٨٧م تخرَّج في مدرسة الحقوق، ثمَّ أكمل دراسته بجامعة جرينوبل حيث حصل على الدكتوراه ... في ١٩٢٢م عُيِّنَ مستشارًا قانونيًا، ثمَّ كبيرًا للمستشارين في عام ١٩٢٦م، وفي ١٩٤١م عُيِّنَ وزيرًا للمالية، ثمَّ وزيرًا للخارجية عام ١٩٤٥-١٩٤٦م بوزارة النقراشي ... وفي هذه السنة انتُخبَ قاضيًا بمحكمة العدل الدولية بلاهاي، ثمَّ نائبًا لرئيس المحكمة ... كان يتولَّى رئاسة الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع، تُوِّفِّي سنة ١٩٦٦م.

^٧ جول لومتر (١٨٥٣-١٩١٤م):

أديب فرنسي من مواليد ١٨٥٣م اشتغل بالتدريس العالي في مستهل حياته، ثمَّ نال لقب الدكتوراه عن رسالته: «الكوميديا بعد موليير ومسرح دانكور»، وكانت باكورة أعماله الشعرية بعد التفرُّغ من التدريس هي «القليدات» و«الشرقيات الصغيرات» ثمَّ تخصصَّ في النقد المعاصر في كبرى الدوريات والمجلات الأدبية، وقد جُمِعَت فيما بعد في مُجلَّدات تحت عنوان «المعاصرون». وقد كتب بعد ذلك نقدًا مسرحيًا رائعًا

«إنَّ الشعر العربي في مجال الإحساس والشعور أنقى شعر عرفه الإنسان، فالأمانة والصدق والشهامة والصدّاقة واحترام المرأة، وقرى الضيف والكرم، وعظمة النفس، والبطولة والفخر، هي بعض ما يتغنّى به ويُعبّر عنه هذا الشعر العربي، وهو ما يسمو به فوق شعر الأمم الأخرى فحولةً ونبلاً...»

هذا بعض ما فعل واصف غالي، فرفع شأن الأدب العربي في بلاد الغرب ... وهو لم يزل هناك يُواصل خدماته الجليلة في هذا السبيل، تاركاً كرسي عبد العزيز فهمي يتول إلى شخصي الضعيف بميراثه الضخم من فاخر الأعمال، وما انطوى عليه من معنى ورمز للوحدة الوطنية ... وشغله بمن ينتمي إلى الإسلام ومَن ينتمي إلى المسيحية، كما شاءت إرادتك يا ربي أن تجمع بين محمد ﷺ ومارية.

و شاء كرم الله أن يترك لي هذا الكرسي ويترك لي معه مهمة الكلام عن صاحبه الأول العظيم، وهي مهمة خلّتها عسيرة أول الأمر، وإذا هي في الواقع لن تُكلّفني جهداً ... فتاريخ عبد العزيز فهمي معروف لكم جميعاً لأنّه تاريخ مصر في جهادها السياسي وجهادها الفكري: أمّا جهادها السياسي فموقف عبد العزيز فهمي منه خالد على الدهر، فهو أحد الثلاثة الذين ثاروا لحرية البلد، وصاحوا في وجه المُستعمر تلك الصيحة التي أيقظت الوطن ...

أمّا تاريخ مصر الفكري، فموقف عبد العزيز فهمي منه باقٍ أيضاً لا يُنسى؛ فهو الذي ثار لحرية الفكر في قضية عبد الرازق وكتابه عن الإسلام وأصول الحكم ...^٨ وقضية طه حسين وكتابه عن الشعر الجاهلي ...^٩ كل هذا معروف لكم أيّها السادة ... ولا محل

«إيحاءات من المسرح»، وقد اتسمت أعماله النقدية بالوضوح والسلاسة بجانب العمق والتحليل، ونراه قد كتب مسرحيات ناجحة أهمها: ثائرة - الوحيدة - الزواج الأبيض - الملوك - الغفران ... وغيرها، ثمّ انتخب في الأكاديمية الفرنسية (١٨٩٥م)، ثمّ نراه في أخريات حياته قد اهتم بالمسائل الحيوية والنقد الموضوعي.

^٨ علي عبد الرازق وكتابه «الإسلام وأصول الحكم»:

عندما ألغى «مصطفى كمال» الخلافة العثمانية التركية عام ١٩٢٤م، انتهز هذه الفرصة بعض ملوك العرب الذين يدينون لإنجلترا بالجلوس على عروشهم، وأخذوا يسعون لإقامة خلافة لهم على المسلمين في سائر البلاد، وكان من الملوك الذين طمعوا في هذه الخلافة «أحمد فؤاد الأول» الملك فؤاد، وأنشأ لهذا الغرض مجلة سمّاها مجلة الخلافة.

هنا للإطناب فيما هو منقوش في الأذهان ... حسبنا أن نستخلص من هذا التاريخ صفة عبد العزيز فهمي وهي روح الثورة من أجل الحرية ... حرية الوطن، وحرية الفكر ... إلى أن جاء هنا في هذا المجمع؛ فاستيقظت فيه مرة أخرى روح الثورة من أجل حرية جديدة

وفي هذا الوقت قام الشيخ علي عبد الرازق (من علماء الأزهر) بتأليف كتابه «الإسلام وأصول الحكم» يُناوئ به طمع الملك فؤاد بطريقة خفية، وأنكر في كتابه الخلافة الإسلامية من أصولها، وأدعى أنها ليست في شيء من الإسلام لأنه ترك أمور الدنيا للبشر يتدبرونها، فأثار كتابه فتنة كبرى بين المسلمين؛ فأكثرهم أنكر آراء الشيخ عبد الرازق، ولم ينتصر له إلا عدد قليل، وكان على رأس المنكرين له علماء الأزهر. وأوحي إلى هيئة كبار العلماء في الأزهر بمحاكمته، ورأس المحاكمة الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي شيخ الجامع الأزهر آنذاك، وانتهت المحاكمة «بإخراج الشيخ علي عبد الرازق — أحد علماء الأزهر والقاضي الشرعي بمحكمة المنصورة الشرعية ومُؤلف كتاب الإسلام وأصول الحكم — من زمرة العلماء.»

وكان عبد العزيز باشا فهمي ووزيرًا للحقانية، وكان عليه أن يعزل الشيخ علي عبد الرازق من وظيفة القضاء الشرعي، ولكن عبد العزيز فهمي رفض تنفيذ الحكم، وقرّر تحويله على مستشاري لجنة القضايا ليفصلوا: هل هيئة كبار العلماء مختصة بالنظر في جريمة علي عبد الرازق أم لا؟ فغضب «يحيى باشا إبراهيم» رئيس الوزراء بالنيابة وذهب إلى الملك فؤاد وأخبره بأمر عبد العزيز فهمي، ثم عاد إليه وطلب منه الاستقالة فرفض عبد العزيز فهمي الاستقالة، وقال له يحيى إبراهيم باشا: إذن أُقيلك، فقال له: أقل كما تُريد.

وقد خلع الشيخ علي عبد الرازق بعد الحكم عليه العمامة ولبس الطربوش ثم سافر إلى فرنسا، والتحق بإحدى جامعاتها، ومكث بها إلى أن حصل على شهادة منها، ثم عاد إلى مصر، واشتغل بالمحاماة في المحاكم الشرعية، ثم رشح نفسه لمجلس النواب فنجح، ومَرّت الأيام وصار وزيرًا للأوقاف — وكان الشيخ المرآغي آنذاك شيخًا للأزهر، وهو الذي أعاد العالمية إلى الشيخ علي عبد الرازق، وألغى ذلك الحكم.

(انتهى نقلًا عن القضايا الكبرى في الإسلام للأستاذ عبد المتعال الصعيدي.)

^٩ الدكتور طه حسين وكتاب «في الشعر الجاهلي»:

ألقى الدكتور طه حسين محاضرات سنة ١٩٢٦م في الشعر الجاهلي جمعها في كتاب سمّاه «في الشعر الجاهلي» أنكر فيه ما روي من الشعر الجاهلي لأنه لا يمثّل الحياة الدينية والعقلية للعرب الجاهلين، وقد جرّه البحث في هذا إلى إنكار قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وغير ذلك مما أثار عليه الناس، وجعلهم يشكونه إلى النائب العام، فتولّى النائب العام التحقيق معه فيما نُسب إليه من اتهامات، وانتهى التحقيق إلى عدم جواز المعاقبة لعدم توفّر القصد الجنائي في الاعتداء على الإسلام، وإنما أورد الباحث ما أورده من ذلك على سبيل البحث العلمي: «وإذا انتفى القصد الجنائي عنه لا يكون عليه عقاب، وتُحفظ الشكاوى المقدمة فيه إداريًا.» وقد قرّرت الحكومة مع ذلك الاستيلاء على الكتاب من المكاتب وغيرها، وحالت دون انتشاره بين الناس.

رأها في حاجة إلى صيحته وشجاعته: تلك هي حرية اللغة ... فلم يكد عبد العزيز فهمي يستقر في هذا الكرسي بمجمعكم حتى لاحظ أن اللغة العربية الجلييلة في بيانها، العريقة في قَدَمِها، تكاد تَعْتَلُّ وتمرض لطول ما أغلقت عليها النوافذ، خوفاً على صحتها، ومحافظة على سلامتها ... رأها كالعجوز المقيّدة في خلايلها ودمالجهها، الحبيسة في حجرة من التقديس، لا يدخلها هواء الحياة ولا شمسُ العصر، خشية عليها من تقلُّب الجو ... فنهض فارس الحرية، وأراد أن يمد يده إلى النوافذ يفتحها لنسائم التجديد، وهو يقول في ذلك: «إنَّ اللغة كائن كالكائنات الحية، ينمو ويهرم ويموت، مُخَلِّقاً ذرية لغوية متشعبة الأفراد، هي أيضاً في تطوُّر مستمر ... ولم يستطع قوم لأنَّ أن يُغالبوا هذه الظاهرة الطبيعية ... فإنَّ التطوُّر يكبح شراسة مَنْ غالبه». إيمان عبد العزيز فهمي بالتطوُّر، أي بالتجدُّد وهو شيخ في الثمانين يدل على أنه كان رجلاً عظيماً حقاً ... وعندما أقول إنَّه عظيم لا أعني المعنى المتبدل، بل أعني المعنى العميق للكلمة، ذلك أنَّ من صفات العظمة شباب التفكير، أي الإحساس بالتجدُّد، أي مغالبة الزمن، أي سبق العصر ... كل العظماء بلا استثناء كانوا مُجدِّدين أي سابقين لعصورهم، مُغالبين الزمن والهرم والجمود؛ لأنَّ عظمة الإنسان هي في الانتصار على الزمن، وخير مظهر للانتصار على الزمن هو شباب الفكر الدائم، وتطوُّر التفكير المستمر.

ولنمض في الإصغاء إلى عبد العزيز فهمي، وهو يتكلَّم عن التجديد والتطوُّر في اللغة؛ قال: «إنَّ رسم الكتابة العربية هو الكارثة، إنَّه رسم لا يتيسَّر معه قراءتها مضبوطة حتى لخير المتعلمين ... وخطر بفكر أحد زملائنا أن يُعالج المسألة من جهة الإعراب، وذلك بحذف حركاته وتسكين أواخر الكلمات ... وقد قرئت آية: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ (الشعراء: ١٣) ١٠ مثلاً في القرآن الكريم بتسكين القاف في الكلمتين ... وهكذا يمضي عبد العزيز فهمي في بيان صعوبات اللغة العربية التي تعرقل انتشارها ... وقد أدركها القدماء أنفسهم؛ وكان عبد الملك بن مروان ١١ يقول: «شيبني ارتقاء المنابر وتوقُّع اللحن»، وكانوا

١٠ ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ (سورة الشعراء من الآية: ١٣).

١١ عبد الملك بن مروان بن الحكم (٢٦-٨٦هـ).

وُلِدَ رضي الله عنه في المدينة سنة ٢٦هـ، ونشأ نشأة علمية عالية فحفظ القرآن والحديث، وكان أبوه مروان بن الحكم من أقرب المُقرَّبين إلى الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولكن الفتن ثارت بمقتل

الحديث الرابع

يقولون: «سَكَّنَ تسلم»، وقال ابن الأثير^{١٢} في كتابه: «المثل السائر»: «إِنَّ الإعراب ليس شرطاً للبلاغة، وليس اللحن قادحاً في حسن الكلام». وقال مثل ذلك ابن خلدون^{١٣} الذي رأى أَنَّ الوقف لا يُجافي البلاغة ... ولكن عبد العزيز فهمي أراد أن يحل العقدة بسيف فقدم اقتراحه المشهور بترك الحروف العربية واتخاذ الحروف اللاتينية ... وأذكر أَنِّي وافقته في ذلك الوقت، فتنفَّضَ — رحمه الله — وزارني في مسكني، وكان يومئذٍ حجرة في نزل بأعلى عمارة ... فأشفقت على شيخوخته من الصعود، وأسرت إليه وهو في سيارته وركبنا معاً، وجعل يشرح لي نظريته وأنا أوافق، ولا يخطر على بالي أَنِّي سأكون يوماً في موضعه من هذا الكرسي وأواجه الناس علناً بهذا الرأي الخطير، الذي لا يُمكن الدفاع عنه. وإن كنت مستعداً للدفاع عن الرأي الآخر الأبسط، وهو تبسيط قواعد النحو وتيسير القراءة والكلام

عثمان فاعتزل أبوه السياسة وباع علياً، ثمَّ جاء معاوية، ثمَّ خلفه ابنه يزيد حتَّى آلت الخلافة إلى مروان وخلفه عبد الملك، وكان حازماً صارماً اشتهر بالعلم والورع مع الحزم، واستطاع أن يُخمد الفتن ويُرسل الفتوحات إلى ما وراء النهرين وبلاد المغرب. وكان من أشهر أهل زمانه وأعلمهم بفقهِ وحديث ولغة. ابن الأثير صاحب المثل السائر:

هو ضياء الدين أبي الفتح نصر الله المصلي المُلقَّب بابن الأثير الجزري تُوِّفِّي ببغداد (١٢٣٧هـ/١٢٣٩م) وهو الأخ الأصغر لابن الأثير المؤرِّخ عز الدين مؤلِّف «أسد الغابة في معرفة الصحابة» وكتاب «كامل التواريخ واللباب في أنساب العرب» وعدة مؤلفات أخرى، وُلِدَ ٥٥٥هـ وتُوِّفِّي سنة ٦٣٠هـ، ويكبرهما أخ ثالث يُلقَّب بمجد الدين وُلِدَ ٥٤٤هـ وتُوِّفِّي ٦٠٦هـ بالموصل وهو الفقيه: له عدة مؤلفات نذكر منها «النهاية في غريب الحديث والأثر» و«جامع الأصول في أحاديث الرسول» جمع فيه بين الصحاح الستة. — وأهم كتب ابن الأثير اللغوي الذي نحن بصده «الوشى المرقوم في حل المنظوم» وكتاب «المثل السائر في آداب الكاتب والشاعر» ويُعلم المصنف في هذين الكتابين الطالب الطريقة التي بها يُتقن صناعة الكاتب والشاعر.

١٣ ابن خلدون:

فيلسوف المؤرخين الذين صنَّفوا في اللغة العربية. وُلِدَ في تونس الغرب سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م، وتوظَّف في حكومة تونس سنة ١٣٥١م ثمَّ في فاس ثمَّ حجَّ ثمَّ انتهى به المطاف في مصر وتولَّى فيها قضاء المالكية وتُوِّفِّي بالقاهرة سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٦م.

كان فضلاً رفيع القدر، وله فنون عقلية ونقلية في التاريخ الكبير الذي سمَّاه «ديوان العبر وكتاب المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» وهو يقع في سبعة مجلدات مع المقدمة التي هي ماثرة دائمة الذكر في فلسفة التاريخ، وتُرجمت إلى كثير من لغات العالم وبهرت الشرق والغرب على السواء.

بغير تعثر ولا تفكير ... والتطور في رأيي سيبدأ بداية لطيفة مقبولة: وهي أن الفصحي ستحتفظ بخير ما فيها، وستستعير من العامة خير ما فيها.

ولكنني أكره من عبد العزيز فهمي أشياء:

أولاً عبارة أدهشتني منه هو بالذات، قالها أثناء أن كنا معاً في سيارته يقوم بشرح نظريته في اللغة، قال إنه ذهب إلى البرنس محمد علي ولي العهد ليُحادثه بشأنها، وقال له بالنص الذي أدهشني: «أنتم يا صاحب السمو أسيادنا وأولاد أسيادنا.» رنت هذه العبارة في أذني ولم أستطع نسيانها ... ولكن بطرح الدهشة، وبالدراسة الموضوعية، وبالتفكير المتأنّي ظهر لي أن الأمثلة كثيرة لذلك:

ففي فرنسا كاتب الحرية الأكبر «فولتير»^{١٤} كان يعيش في كنف ملك أجنبي ...

^{١٤} فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨م):

كاتب وأديب فرنسي وصاحب مدرسة فكرية فلسفية.

كتب رائعته التراجيدية «أوديب» (١٧١٨م) ثم أمضى بعض سنوات في إنجلترا حيث وجد الفلسفة والحرية الفكرية، واستشعر أهمية العلماء في الحياة السياسية وفي المجتمع، وبعد عودته كان إنتاجه يدور حول التراجيديا الفلسفية. أهمها: «بروتس»، «زاير»، «موت القيصر»، «تاريخ شارل الثاني عشر»، «معبد الأدواق»، «ملاحظات على أفكار باسكال»، «ألزير» (١٧٣٦م)، «محمد» (١٧٤٢م)، «ميروب» (١٧٤٣م). وفي عام ١٧٤٥م عاد إلى باريس ليستمتع بتقرُّبه إلى البلاط الملكي وكتب «ديوان فونتنوي» وانتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية (١٧٤٧م) ثم كتب قصصاً فلسفية (زاديج - ميكرو ميجاس)، وسافر إلى برلين حيث كان الملك «فريدريك الثاني» في انتظاره وأحسن ضيافته، وهناك أصدر فولتير كتابه «قرن لويس الرابع عشر» (١٧٥١م) واختلف الفيلسوف والملك، فترك الأول بروسيا عائداً إلى «فرنسي» بفرنسا، وقضى هناك ثلاثة وعشرين عاماً من الإنتاج الفكري فأبدع في كتابة الرواية «كانديد» و«أميرة بابلليون» و«القاموس الفلسفي».

(انظر: تحت شمس الفكر، توفيق الحكيم، مكتبة مصر).

ولقد كتب توفيق الحكيم مقالاً بعنوان «الدفاع عن الإسلام» سنة ١٩٣٦م في كتابه تحت شمس الفكر هاجم فيه فولتير لاجترائه على الإسلام ونبيه ﷺ جاء فيه: «قرأت لثلاث عشرة سنة خلت قصة «فولتير» التمثيلية «محمد» فخلجت أن يكون كاتبها معدوداً من أصحاب الفكر الحر، فقد سب فيها النبي العربي سباً قبيحاً عجبت له، وما أدركت له علة، لكن عجبي لم يطل إذ رأيته يهديها إلى البابا بنوا الرابع عشر ...»
توفي (١٧٧٨م) في باريس مُخلفاً تراثاً ضخماً وجداً كبيراً.

الحديث الرابع

وفي ألمانيا كان «جوته»^{١٥} العظيم وثيق الصلة بالقصر الملكي ...
وشاعرنا العربي المتنبي مع سيف الدولة ...^{١٦}
وفي مصر علمت من طه حسين أنه كان يرسل النسخة الأولى لكتبه إلى السراي الملكية ...
والعقاد^{١٧} الذي سُجِنَ لموقفه الشامخ من الملك فؤاد، له قصيدة أمام الملك فاروق
عندما زار العامرية، والعقاد مُمْتَلًا لها في البرلمان ...

^{١٥} يوهان فولفجانج جوته (١٧٤٩-١٨٣٢م):

أكبر أدباء ألمانيا في العصر الحديث، درس القضاء في مستهل حياته ثم احتضنه دوق «فايمار» صديقًا
وزيرًا ومستشارًا، ممَّا أتاح له تعرُّف الأحداث والشخصيات الأدبية والعلمية والسياسية. وقد راقب
وتفاعل مع القصر الملكي الألماني خصوصًا في المعارك الكبرى.

وكان مُراسلًا وصديقًا لمدام دي شتاين ثم لشيلر، وقد نجح في الخروج بالأدب المحلي إلى العالمية.
وتنقسم أعماله إلى شعر وقصص ومسرح وأبحاث علمية ذات قيمة. وهو من أبرز من كتبوا الرمزية
بعمق كما في «فاوست».

وهكذا نرى أنَّ حياة «جوته» وإنتاجه يُمثِّلان انسجام التطوُّر المستمر، وقد وُصِفَ في موسوعة لاروس
الفرنسية: بأنَّه أحد العباقرة القلائل الذين اقتربوا من حد الكمال البشري حيث إنَّه أحاط بمجموع معارف
واهتمامات الإنسانية.

^{١٦} المتنبي:

هو أبو الطيب أحمد بن عبد الصمد الجعفي الكندي، وُلِدَ في الكوفة سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م، وهو من
أشهر شعراء العرب وأشعرهم، ولُقِّبَ بالمتنبي؛ لأنَّه كان قد ادَّعى النبوة في بادية السماوة وتبعه خلق
كثير من بني كلب؛ فخرج إليه والي حمص فأسره وحبسه حتَّى تاب، وتفرَّق عنه أصحابه. قُتِلَ المتنبي
٣٥٤هـ/٩٦٥م، قتله بعض اللصوص، ولقد كانت له علاقة بسيف الدولة أمير حلب وأجزل له العطاء،
وعاش في رغدٍ من العيش.

^{١٧} عبَّاس العقاد:

الكاتب الأديب والشاعر والناقد والسياسي والصحفي وُلِدَ بأسوان عام ١٨٨٩م عمل بالوظائف
الحكومية، ثم تفرَّغ للصحافة منذ ١٩٠٧م عمِلَ بالدستور والمؤيد والأهرام، ثم تعدَّدت بعد ذلك الصحف
التي عمِلَ بها.

انتُخِبَ العقاد مرتين عضوًا بمجلس النواب عن أسوان والصحراء الغربية، كما عُيِّنَ عضوًا بمجلس
الشيوخ، وفي خلال نيابته هاجم محاولة الملك فؤاد العيث بالدستور، وأعلن رأيه في المجلس بقوله: «إنَّ
الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس في البلاد يخون الدستور ولا يصونه.» فقَبِضَ عليه وسُجِنَ من
أكتوبر ١٩٣٠م إلى يوليو ١٩٣١م، تُوِّفِّيَ في ١٩٦٤م.

إن العلاقة بين رجل الفكر ورئيس الدولة مسألة شخصية لا تُؤثّر في حرية فكر المُفكّر ... ولكننا اعتدنا أن نرفع مَنْ نُحب إلى مثل أعلى شبه معصوم، وأن نخفض من نكره إلى حضيض مُجرّد من كل مزية.

الأمر الثاني الذي لا أعتفّر له هو أنّه السبب في هدم وحدة الحركة الوطنية بالانشقاق على الوفد المصري بحجّة أنّ سعد زغلول كان يستبدُّ برأيه، ولولاه لأصبح الوفد المصري مستمرّاً كما استمر حزب المؤتمر في الهند ... ولكن عبد العزيز فهمي كان عصبي المزاج، فلم يستطع التماسك والصبر على ما لا يُعجبه ليتحاشى الانشقاق والانقسام. لم أذكر ذلك طبعاً في كلمة الاستقبال بالجمع؛ لأنّ من تقاليد الجمع أن تكون الكلمة للتنويه بصاحب الكرسي، سواء القديم أو الجديد ... والقديم يُنوّه به الجديد، أمّا الجديد فيستقبله مَنْ رشّحه ... إلّا في حالتي؛ فقد حدث أنّ الذي رشّحني كان أحمد أمين^{١٨} ومعه الدكتور منصور فهمي،^{١٩} بينما الذي استقبلني لم يكن أحدهما ... فقد حصل أن اتصل بي تليفونياً الدكتور طه حسين وسألني: هل لديّ مانع من أن يكون هو الذي يستقبلني؟ فوافقت لعلمي بحرص طه على تقديم واستقبال مَنْ يختارهم، وقد سبق أن اختار هو استقبال وتقديم الدكتور عبد الحميد بدوي باشا، مع أنّه رجل قانون ... وقد تكلم طه حسين عني مُنوّهاً بكرمي ... وناقياً عنيّ صفة البخل التي ألصقت بي ... وعلمت بعد ذلك أنّه أشاع أنّي غضبت من كلمته لإعلانه أنّي كريم!

(تَمَّتْ الأحاديث الأربعة)

^{١٨} أحمد أمين (١٨٨٦-١٩٥٤م/١٣٠٤-١٣٧٣هـ):

أديب مصري، وُلِدَ بالقاهرة عام (١٣٠٤هـ/١٨٨٦م) ودرس بالأزهر ومدرسة القضاء الشرعي واشتغل حيناً بالقضاء الشرعي، ثمّ عُيِّن مدرساً فأستاذاً للأدب العربي بالجامعة المصرية منذ عام ١٩٢٦م، فعميداً لكلية الآداب واشترك في تأسيس لجنة التأليف والترجمة والنشر. من مؤلفاته: «فجر الإسلام»، و«ضحى الإسلام»، و«فيض الخاطر» تُوِّفِيَ عام ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

^{١٩} منصور فهمي: (١٨٨٦-١٩٥٦م/١٣٠٣-١٣٧٨هـ):

وُلِدَ بالمنصورة ١٨٨٦م، تخرّج في مدرسة الحقوق، وأُوْفِدَ في بعثة دراسية إلى فرنسا، حصل من جامعة باريس على الليسانس في العلوم، والدكتوراه في الفلسفة، عاد إلى مصر وعُيِّن أستاذاً للفلسفة في كلية الآداب، فوكيلاً لها فعميداً لها، فمديراً لدار الكتب المصرية، فمديراً لجامعة الإسكندرية، ثمّ عضواً بمجمع اللغة العربية، والمجمع العلمي بدمشق وعضواً بجمعية الشُّبَّان المسلمين بمصر.

أنا مسلم ... لماذا؟

(لما جاء في الإسلام من عناصر ثلاثة: الرحمة - العلم - البشرية وقبل ذلك وفوق ذلك لأني أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله.)

* * *

- ثمَّ لأني مؤمن بالرحمن الرحيم، وهي الصفة التي وصف الله تعالى بها نفسه، ونُكِّرَها في كل ساعة: «بسم الله الرحمن الرحيم».
- ولأني مؤمن بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء: الآية ١٠٧).
- ولأني مؤمن بقوله تعالى: ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (سورة الأنعام: من الآية ٥٤).
- ولأني مؤمن بقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ (سورة الحجر: الآية ٥٦).
- ولأني مؤمن بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ...﴾ (سورة الزمر: من الآية ٥٣).
- وقوله تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ...﴾ (سورة الأعراف: من الآية ١٥١).
- ولأني مؤمن بقول الرسول ﷺ: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله».
- وقوله: «عُدَّتْ امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً...»

- وقوله: «مَنْ رَحِمَ لَوْ ذَبِيحَةَ رَحِمِهِ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...»
- وقوله: «بينما رجل يمشي بطريق اشتدَّ به العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثمَّ خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خَفَّهُ فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له، قالوا: يا رسول الله وإنَّ لنا في البهائم أجراً؟ قال: في كلِّ ذات كبد رطبة أجر.»
- ولأنِّي مؤمن بقول النبي ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا، وهي تقدر أن لا تطرحه ... فقال: الله أرحم بعباده من هذه بولدها.»
 - ولأنِّي مؤمن بدعاء رسول الله ﷺ: «اللهم رحمتك أرجو، ولا تكني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت.»
 - ولأنِّي مؤمن بما رواه أبو هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرهما عن ولدها خشية أن تُصيبه ...»
 - ولأنِّي مؤمن بقول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (سورة العلق: الآيات: ٣-٥).
 - ولأنِّي مؤمن بقوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ...﴾ (سورة البقرة: الآية ٣٢).
 - وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (سورة المجادلة: من الآية ١١).
 - وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (سورة فاطر: من الآية ٢٨).
 - وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (سورة طه: من الآية ١١٤).
 - ولأنِّي أؤمن بقوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ...﴾ (سورة آل عمران: من الآية ١٩١).
 - ولقول رسول الله صلاة الله عليه وسلامه: «لا عبادة كتفكُّر»، وقوله: «وهل ينفع القرآن إلا بالعلم!»
 - وقوله: «اطلبوا العلم ولو في الصين ...»
 - وقوله تعالى: ﴿حُدُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (سورة الأعراف: من الآية ٣١).

- وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ (سورة طه: الآية ٨١).
- وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة العنكبوت: الآية ٦).
- وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (سورة يونس: الآية ١٠٨).
- وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (سورة الزمر: من الآية ٩).
- وقوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الزخرف: من الآية ٨٩).
- وقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ (سورة البقرة: من الآية ١٣٦).
- ولأنِّي مؤمن بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (سورة النساء: الآية ١٥٢).
- وقوله تعالى: ﴿أَمَنْ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (سورة البقرة: من الآية ٢٨٥).
- وقوله ﷺ: «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع.»
- ولأنِّي مؤمن بقول الرسول صلوات الله عليه: «أنتم أدرى بأمور دنياكم.»
- ولأنِّي مؤمن بما جاء في القرآن الكريم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ (سورة المائدة: من الآية ٦٨).
- ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة المائدة: من الآية ٦٩).
- وقوله ﷺ: «لا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله، ولا للعالم أن يسكت على علمه.»
- وقوله: «فضل العلم خير من فضل العبادة.» وقوله: «مَنْ عَلِمَ عِلْمًا فَكْتَمَهُ أَجْمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلْجَامٍ مِنْ نَارٍ ...»

- ولأنِّي مؤمن بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ (سورة المائدة: الآية ٧٧).
- ولأنِّي مؤمن بالحديث الشريف: «لا تؤمنوا حتَّى تحابوا...»
- وقوله ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمى.»
- ولأنِّي مؤمن بقول رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه...»
- ولأنِّي أومن بقوله صلوات الله عليه: «إنَّ الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق...»
- ولأنِّي أومن بقوله صلوات الله عليه: «إنَّ الله جميل يُحب الجمال ويُحب أن يرى أثر نعمته على عبده.»
- كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (سورة الضحى: الآية ١١).
- ولأنِّي أومن بقوله ﷺ: «تَفَكَّرُوا فِي الْخَلْقِ وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي الْخَالِقِ فَإِنَّكُمْ لَا تُقَدِّرُونَ قَدْرَهُ.»
- ولأنِّي مؤمن بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (سورة القصص: الآية ٧٧).
- ولأنِّي مؤمن بقول رسول الله: «أما والله إنِّي لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوَّج النساء، فمن رغب عن سنَّتي فليس مني.»
- وقوله: «حُبِّبَ إِلَيَّ النِّسَاءَ وَالطَّيِّبَ وَجُعِلَتْ قَرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ...»
- ولأنِّي مؤمن بخلق رسول الله البشر ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم،^١ قالوا: «استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهنَّ على صوته، فلَمَّا استأذن عمر قمن فبادرن الحجاب، فأذن له رسول الله ﷺ، فدخل عمر ورسول الله يضحك، فقال عمر: «أضحك الله سنك يا رسول الله!» فقال النبي: «عجبت من هؤلاء اللاتي كنَّ عندي فلَمَّا سمعن صوتك ابتدرن الحجاب»، فقال عمر: «أنت أحق أن يهبن يا رسول الله»، ثمَّ قال عمر: «يا عدوات أنفسهنَّ، أتهبني ولا تهبن رسول الله ﷺ؟» فقالن: «نعم... أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ»
- فقال رسول الله: «إيهها يا بن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالگًا فجًا إلَّا سلك فجًا غير فجك...»

^١ * هذا الحديث حسن الإسناد يروى أنَّ النسوة في حضرة النبي كنَّ بغير حجاب، وأنَّ المقصود في الإسلام قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرَجْنَ تَبْرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ (الأحزاب: ٣٣) ... والزي الإسلامي معروف. فلماذا الغلو في الدين بما انتشر اليوم من بدع في الزي والتخفي...؟

- ولأُني مؤمن بما قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» و«إنما العلم بالتعلم» وقوله: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ بِهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ...»
- ولأُني مؤمن بما روي عن عائشة أنها قالت: «ما حُيِّرَ رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ...» ولَمَّا جاء في حديث: «خير دينكم أيسره». قالها ثلاثاً ...
- ولأُني مؤمن بما قاله رسول الله ﷺ: «لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله، فبقدر عقله تكون عبادته، أما سمعتم قول الفجَّار في النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (سورة الملك: من الآية ١٠)».
- ولَمَّا رواه أبو هريرة قال: «لَمَّا رَجَعَ رسول الله ﷺ من غزوة أحد سمع الناس يقولون: فلان أشجع من فلان، وفلان أبلى ما لم يُبَلِّ فلان، ونحو هذا، فقال رسول الله ﷺ: أَمَّا هَذَا فَلَا عِلْمَ لَكُمْ بِهِ، قَالُوا: وَكَيْفَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: إِنَّهُمْ قَاتَلُوا عَلَى قَدْرِ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْعَقْلِ، وَكَانَتْ نَصْرَتُهُمْ وَنِيَّتُهُمْ عَلَى قَدْرِ عَقُولِهِمْ، فَأُصِيبَ مِنْهُمْ مَنْ أُصِيبَ عَلَى مَنَازِلَ شَتَّى؛ فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ اقْتَسَمُوا الْمَنَازِلَ عَلَى قَدْرِ نِيَّاتِهِمْ وَقَوْلِهِمْ ...»
- وعن عائشة قالت: «قلت يا رسول الله بِمَ يَتَفَاوَضُ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا؟» قال: «بالعقل»، قالت: «وفي الآخرة» قال: «بالعقل»، قالت: «أليس إنَّما يجزون بأعمالهم؟» قال: «يا عائشة وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم عز وجل من العقل، فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم، وبقدر ما عملوا يُجزون.»
- ولأُني مؤمن بقوله تعالى في حديث قدسي: «يسبُّ ابن آدم الدهرَ وأنا الدهرُ بيدي الليل والنهار.»
- ولأُني مؤمن بقول الرسول ﷺ: «يتبع الميت ثلاثة، ف يرجع اثنان ويبقى معه واحد: يتبعه أهله وماله وعمله، ف يرجع أهله وماله، ويبقى عمله ...»
- ولأُني أومن بقوله تعالى في قرآنه الكريم: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (سورة البقرة: من الآية ١٨٥). وقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (سورة الطلاق: الآية ٧). وقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (سورة الشرح الآية: ٥-٦).
- ولأُني مؤمن بدعاء الرسول ﷺ نقلًا عن عائشة أنها رأت النبي يدعو رافعًا يديه يقول: «إنَّما أنا بشر فلا تُعاقِبني، أيُّما رجل من المؤمنين آذيتَه أو شتمتَه فلا تعاقبني فيه ...»

- ولأني مؤمن بدعاء رسول الله ﷺ في دعوات المكروب: «اللهم رحمتك أرجو، ولا تكن لي
إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت.»
- ولأني مؤمن بقوله ﷺ: «عَلِّمُوا وَيَسْرُوا، عَلِّمُوا وَيَسْرُوا» (ثلاث مرات) «وإذا غضبتَ
فاستكت» (مرتين).
- ولأني مؤمن بما قال أبو بكر رضي الله عنه للنبي ﷺ: عَلِّمْنِي دَعَاءَ أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي.
قال: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي من عندك
مغفرة، إنك أنت الغفور الرحيم.»
- ولأني مؤمن بقول رسول الله صلوات الله عليه: «ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي
صاحبه إلى هدى ويردّه عن ردى، وما تمَّ إيمان عبد ولا استقام دينه حتَّى يكمل عقله.»
- ولأني مؤمن بقوله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (سورة هود: من الآية ٨٨).
- ولأني مؤمن بما جاء في خطبة رسول الله ﷺ: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس.»
- ولأني مؤمن بما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ
وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (سورة النحل: الآية ١٢٦).
- ولأني مؤمن بقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي
ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (سورة النحل:
الآية: ١٢٧-١٢٨).
- ولأني مؤمن بقوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سورة النحل: من
الآية ١٢٥).
- ولأني مؤمن بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ (سورة البقرة:
من الآية ٢٨٠).
- ولأني مؤمن بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا
أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (سورة البقرة: من الآية ٢٦٩).
- ولأني مؤمن بقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (سورة البقرة: من الآية ٢٥٦).
- ولأني مؤمن بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (سورة البقرة: من
الآية ١٤٣).

أنا مسلم ... لِمَاذَا؟

- ولأنِّي مؤمن بقوله تعالى: ﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (سورة الإسراء: من الآية ١٥).

توفيق الحكيم^٢

^٢ رُوِجِعَتِ الْأَحَادِيثُ بِعِنَايَةِ.

خاتمة

أمَّا بعد ... فما المراد من كتابي هذا؟

المراد يا ربي هو طاعتك فيما أمرتنا به في كتابك الكريم ... وها هي ذي آياتك العظيمة:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ (سورة الروم: من الآية: ٨).

﴿كَذَلِكَ يَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة البقرة: من الآية: ٢١٩).

﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِيَ وَفَرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ (سورة سبأ: من الآية: ٤٦).

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الأنعام: من الآية: ٥٠).

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة يونس: من الآية: ٢٤).

﴿... الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ﴾ (سورة آل عمران من الآية: ١٩١).

﴿فَأَقْصِبْ قَصْبَ الْقَصَصِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الأعراف من الآية: ١٧٦).

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة النحل

الآية: ٤٤).

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الحشر الآية: ٢١).

وهكذا ... وهكذا ... في آياتك الكثيرة يا ربي دعوة إلى التفكير ... وخلقنا لنا آلة للتفكير

... فلم نستخدمها كثيراً ... واكتفى أكثرنا بالتلقي، دون تفكير ... واستخدم بعضها التفكير

داخل جدران التلقين ... ولم يعملوا بقول رسول الله ﷺ: «لا عبادة كتفكر» ... لأنَّ التفكر

إذا أدَّى إلى معرفتك الحقيقة، وليست فقط المعرفة التلقينية، فقد أصبح عبادة ... لأنَّ

العبادة في جوهرها هي معرفة قدرتك، وتقديرك حق قدرك ... وهذه المعرفة العليا لا يكفي

للوصول إليها حفظ وترديد العبارات المُلقَّنة ... ولقد قالها الرسول صلوات الله عليه: «وهل ينفع القرآن إلا بالعلم؟!»

وقد جاء في قرآنك الكريم: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ...﴾ (سورة لقمان: من الآية ٢٧) حقاً يا ربي! وهل لو تحوّلت الأشجار إلى أقلام والبحار إلى مداد يُمكن أن نكتب بها كل عجائب صنعك؟! وهل يُمكن لكلّ ما عندنا من فكر يتجدّد بتجدّد العلوم والأزمان أن يصل إلى بعض ما عندك من أسرار خلقك؟! ما نحن إلا بشر ضعيف فوق كوكب صغير خلقت مثله بقدرتك غير المحدودة ما لا حصر له من ملايين الكواكب والشموس ... وأنت وحدك الأعلم بما خلقت فيها من مخلوقات قد تكون أقوى منّا إدراكاً ... ولقد سلّحتنا من فضلك بسلاح الفكر لندفع به عنّا شرّ الأقوى من وحوش الأرض، وشرّ الأذكى من مخلوقاتك في كوكب آخر قد يُهدّد بقاءنا ... ولا بُدّ لذلك من فكر مُتجدّد يتسع ويرتفع لإدراك بعض أسرار المعجزة. ولقد قمت يا ربي بتدريتنا وتوسيع مداركنا البشرية على مراحل ... بدأت المرحلة الأولى فيها بأداة «اللغة» المعروفة للناس، بكلام مبین موحى به منك، ليس فيه تفصيلات علمية لا يُدركها بعد عقلنا البشري في تلك المرحلة، ولكن فيه إشارات لذوي الألباب ... وأنت يا ربي تعرف مواقيت المراحل القادمة التي يستطيع فكرنا أن يقترب فيها خطوات من المعرفة التي أردت لنا بها أن نكشف شيئاً من أسرار خلقك، وهيأت لنا فيها لغة أخرى صالحة لذلك هي لغة القوانين العلمية والمعادلات الرياضية التي يُمكنها الكشف عن تركيب الذرة وتكوينات العناصر في أنواع خلقك ... ولذلك لا بُدّ لرجل الدين المُتعمق أن يعرف هذه اللغة العلمية ليزداد معرفة بالله وقرباً من أسرار خلقه.

وحَتَّى في هذا فطن عالم مؤمن مثل «أينشتين» إلى ما جعله يقول إنَّ العلم الذي يُمارسه هو أيضاً نابع من نوع من الإلهام الإلهي.

لقد علّمنا الله فيما علّمنا بعض أدوات العلم الذي أراد لنا التقدّم فيه ... من ذلك «مبدأ السببية»، أساس العلم ... فهو تعالى وإن كانت إرادته هي العليا، ويكفي أن يقول للشيء: كُنْ فيكون ... إلاّ أنّه أراد أيضاً أن يُعلّمنا أنّ الإرادة — حتّى إرادته أحياناً — تكون على أساس السبب والمسبب، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (سورة الإسراء: الآية ١٦). وكان من الممكن أن يكتفي بالإرادة، ويقول: «وإذا أردنا أن نهلك قرية دمرناها تدميراً» ... ولكن الله تعالى أراد بحكمته وعلمه أن يقول لنا: فلتكن لكم إرادة، ولكن لتكن هناك أيضاً الأسباب التي توصل إلى تحقيق هذه الإرادة ... والله أعلم.

ومهما يكن من أمر فقد أرانا الله تعالى الفرق بين الإرادة وبين الأسباب الموصلة إلى تحقيقها ... كذلك «معرفة الله» وهي الهدف الأسمى من «العبادة»، ثمّ طريق الوصول إلى هذه «المعرفة» وهو «الفكر» ...

ويجب أن نُفرِّق بين «العلم الصرف» الذي يُقَرِّبنا إلى معرفة الله، والعلم التطبيقي «التكنولوجيا» الذي هو المسئول عن القنابل الذرية والإنسان الآلي والقلق الحضاري ... وقد سبق أن ذكرت ذلك في بعض المؤتمرات الأوروبية ... ومسئولية إنقاذ البشرية تقع اليوم على رجال الفكر بالتعاون مع رجال الدين على دعم القوى الروحية ... وإن كان الاتفاق على معنى واحد لكلمات: «القوى الروحية» و«الفكر» و«العلم» و«الثقافة» ليس من الميسور دائماً عندنا، وهو ما يُؤدِّي إلى سوء الفهم واختلاف الأحكام.

كذلك في «الدين» على وجه العموم: هنالك من يرى فيه الغرض الأصلي وهو «الوصول إلى الله»، وهنالك من يراه في «الشعائر» و«الطقوس» ... وهنالك من يتبع بكل دقة الشعائر التي أمر الله تعالى ولا يعتبر أنه قد وصل ... إنّما هو اتبع الطريق الذي أراده الله للوصول إليه لأنّه السلم الذي يرتقي عليه ...

إنّما الوصول ذاته هو القمة ... وهي معرفته وحبّه تعالى ... وحب الله ليس هو الحب الذي نعرفه من البشر للبشر ... لأنّ الحب البشري له أسبابه وأعضاؤه التي خلقها الله لنا وبها ... والله ليس بشراً مثلنا؛ فهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١) ... إذن «حب الله» هو: «حب نوره»، ونوره تعالى ليس مصدره القلب وحده ... ولا العقل وحده ... ولكنّه في كلّ ما يُضيء كياننا البشري ويرفعنا لنسمو على أنفسنا ...

وأخيراً ... فإنّ من واجبي أن أنبه إلى خطر أحشى استفحاله يتعرّض له الإسلام وأهله والفكر وأهله من انتشار «الغوغائية»، وهي القوة الغاشمة التي تقوم على مجرد الإشاعة ونبيذ «التفكير» ... التفكير الذي أوصى به الله تعالى ورسوله صلوات الله عليه ... وكان أن قام نفر اتخذ من «الغوغائية» البعيدة عن «التفكير» سلاحاً للسيطرة على العقول ... وكان من أثر ذلك ما تعرّض له في الإسلام أمثال: «ابن رشد» و«ابن سينا» من اضطهاد، وفي المسيحية أمثال: «جاليليو» و«كوبرنيكوس» ... وكانت الحُجّة التي في يد قادة «الغوغائية» هي دائماً: الدفاع عن الدين ضد الإلحاد ... وتتكفّل الإشاعة بالباقي ... فإذا كل من اتجه إلى «التفكير» في دين أو علم قد حاصرت «الإشاعة» وطاردته.

والإسلام اليوم في نهضة تحتاج إلى فهم صحيح لكتاب الله الكريم وحديث رسوله الشريف ... وأسلوب القرآن مبين، وحديث الرسول واضح ... ولكن «الإشاعة» لا تقرأ ولا

تفكر ... وفي هذه «الأحاديث الأربعة» «مع الله وإلى الله» أطلقت «الإشاعة» القول بأن المؤلف تجرأً وتطاول على الله تعالى بمخاطبته ... ولو قرءوا القرآن بعناية وفكر لوجدوا الله تعالى يخاطب الإنسان بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (سورة الانفطار الآية: ٦).

ويقوله تعالى يُخاطب الناس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ (سورة البقرة: من الآية: ١٦٨).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (سورة النساء من الآية: ١).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (سورة الصف الآية: ١٠).

بل إنَّ الله تعالى يُخاطب الكافرين أيضًا في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة التحريم الآية: ٧).

أمَّا الإنسان فهو أيضًا يُخاطب ربه ... كما جاء في القرآن الكريم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (سورة الكهف من الآية: ١٠).

وكما جاء في كتابه الكريم: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (سورة الأعراف من الآية: ٨٩).

ليس في كل هذه الآيات مخاطبة الله تعالى للإنسان والناس والمؤمنين والكافرين ... كما أنَّ فيها مخاطبة من الإنسان والناس لله سبحانه وتعالى؟! اللهم احفظ الإسلام ممن يُسيء فهمه وفهم المؤمنين به ... واعف عنا واغفر لنا وارحمنا.

توفيق الحكيم

رمضان ١٤٠٣هـ/يونيو ١٩٨٣م

